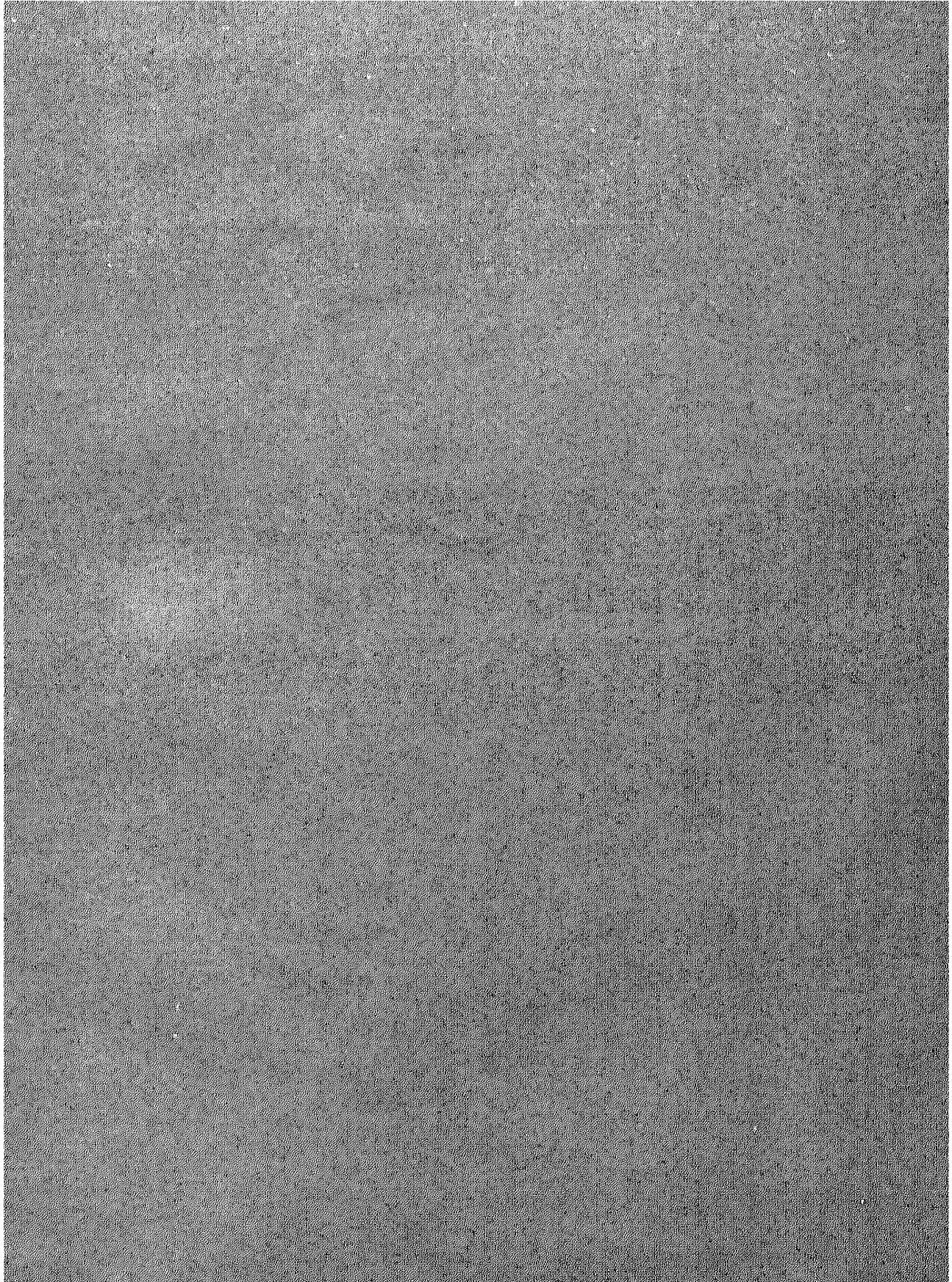




مؤلفات يحيى حقى

يحيى حقي

القصص ٣

رساء وطيى

مع ثلاث قصص جديدة



الو ئة العشرة العشرة العشرة

١٩٩٤

مقدمة

لأزال أذكر كيف كانت حارتنا الضائعة وسط القاهرة تستيقظ
فجأة ذات صباح من سباتها وغفلتها على نداء غريب يتردد في أرجائها،
لانسמעه إلا مرة كل عام ، ولا نفهم معناه :
عوف الله .. عوف الله ..

« يزعم البعض أنه تحريف لاسم أوفيليا إلهة الماء عند
الإغريق » فنعلم أن النيل قد وفى بوعدده وفاض بالخير والبركات
على الوادى السعيد ، وتنبعث فينا نحن صبية المدينة - ولاشأن لنا بالزراع
والرى - هزة فرح لانعرف سببها، ونجربى إلى الجسور نحتفل بهذا

الموج الأحمر الداكن الذى يشع بالحياة والقوة ، يتدفق فى خيلاء
وعنف إلى البحر البعيد .

ويتقدم العمر ، ويزول سحر الأساطير ، وينتفش الإحساس
الفطرى ، فإذا بنا - مع ذلك - كلما وقفنا على الجسور
وتطلعنا إلى الجنوب ، أحسنا بأن أرواحا وقوى مبهمة تهب علينا مع مياه
النيل . وكنا نجد تفسيرها إذا مررنا - والليل قد مضى أكثره - على
عمارة تريد أن تقوم ، ووصلت إلى آذاننا تلك المقطوعات الخزينة
العميقة ، تنبعث من بين أكوام الحجارة حيث يضطجع الفعلة -
وجلهم من أبناء الصعيد - حول النار يصطلون ، إذا كان الوقت
شتاء ، أو يتنسمون الهواء العليل ، إذا كان صيفاً ، ويرددون أغاني
لهم يتذكرون بها وطنهم وأهلهم وأحبائهم . وهم ساهرون رغم
تعب النهار ، كأنما تؤرقهم الذكرى .

هؤلاء هم الصعايدة : قوم جاءوا من بلاد نائية ، حرها شديد ،
وزرعها قليل ، تغمر مياه النيل أراضيهم - الحياض - كل عام ،
فيبطل العمل ، ويحلو الاجتماع والسمر على جسور النيل . ثم تتخطفهم
الهجرة إلى القاهرة والإسكندرية وغيرهما من مدن مصر ، فيترك
الأب أبناءه وزوجه ، والابن أمه وأباه ، والعاشق حبيبته ، طلباً للقامة
العيش . . حياة محفوفة بالشقاء والترحال والفراق ، تلهب إحساسهم
وتذكى عواطفهم . ومن ثم كان لأهل الصعيد روح خاصة ذات عمق
وجمال وفن أصيل

ومن تبل هؤلاء القوم أنهم في عز كفاحهم للحياة لا ينسون الغناء،
تتفجر قلوبهم بأغان ساذجة صادقة ، تمثل بلادهم وسحرها وفقرها ،
وأبراج الحمام البرى المنتشرة فيها ، والنخل باسقات . والنيل عند
فيضانه يفصل القرى فتصبح كالجزر العائمة ، وواديه الضيق تحده
تلال تقبض عليه قبضة فكى كلب صيد على الفريسة

تحدث أغانيهم كيف يلجأون لهذه التلال هرباً من رجال الحكومة ،
فتتعبهم الهجاة السودانيون . . كما تحدث عن حماسهم للأخذ بالثأر ،
والدفاع عن العرض ، وشوقهم وحنينهم للأهل والوطن والأحباب ،
وحسرتهم على أيام الحياة تنقضى في تنقل وفراق . وتنشد هذه
المقطوعات بأنغام حزينة كلها أنين يلائم معانيها بساطة وحرارة
ولوعة .

ولا تخلو عربات الدرجة الثالثة في قطار الصعيد من طلبة تنأق لها
الأيدي حتى تستقر في يد خبير ولهان . فيخيل إليك أن الوادي كله
يتغنى معه ، ويتلقف أناشيده ، وأنها تنزل إلى ثراه كالحب وقت البذر ،
فتكتب لها حياة متجددة أبداً لا تفنى . . قد أصبح للصعايدة قطار —
أبو عجل حديد — يعرف باسمهم ويذكر في أغانيهم ، هو القطار الذي
يربح الإسكندرية في منتصف الليل ليلحق راكبه أول قطار يقوم
في الصباح المبكر من القاهرة للصعيد ، وإذا ذكرت الإسكندرية ذكر
معها سيدى مرسى أبو العباس صاحب المقام العالى ، وله في قلوب
الصعايدة إجلال أيما إجلال .

وهناك فى قلب الصعيد النأى عند « البلىنا » بلدة صغيرة يصل
إلىها قاصدها بعد أن يعبر النيل من بر السكة الحديدية ، هى بلدة
مزاته ، موطن الراقصة ناعسة . والفن الصعيدى مدين لهذه البلدة
وتلك الراقصة . فلاتكاد تخلو مقطوعة من ذكر مزاته وناعسة .
فمزاته وناعسة رمز الوطن والأهل والأحاب وأيام الهنا .
وها هى بعض تارات من الأغانى الصعيدية (١) ..

(١)

يا باجور الساعة اتناشر	يا مقبلع الصعيد نارى يابوى
سلم لى ع الحبايب	ومحمد ولدى »
يا جريد النخل العالى	طاطى ورد السلام »
سلم لى ع الحبايب	آيا غايب لك زمان »
تحسبى اليوم نسيته	دا البعد الى جفاك »
خايف أروح مزاته	ناعسة تتقل على »
ضمينى وأنا أضمتك	ليس الشقا طويل »
شمس العصارى غابت	ياللى بلادك بعيد »
فرش الحمام على الميه	فرحواله الصيادين »

(٢)

خاين يازمىانى وديت حبيبى فىين
ولا جواب جانى شيعت له جوابين

(١) هذه الأغانى من جمع صديقى الأستاذ محمد عصمت .

سوده وعاجباني	عيون حبيبي ياناس
نجم السما العالي	يشهد علينا الليل
ولا كان على بالي	يوم السفر يابنات
نار مقام عالي	مرسى يابو العباس

(٣)

عديني يا معصداوي	عديني أنا
مد السقالة يا ريس	معرفش العوم ياعم أنا
عديني أنا ومحبوبي	والأجره على أنا
محبوبي في البر الثاني	عنده مونة سنه
قدام بيت اللي بحبه	شجره وضله ومعنى وهوا
يا رايح على مزاته	حسود ع البلينا
تلقى بنات عبيد الله	ناصبين السلطنه
وعمار يابو حمادي	وزمان البلينا
ياللي حبيت ولا طلتش	صعبان على أنا
ومدام نحالي السوابق	على آيه تنذرني ياعمده أنا
ناعسة نزلت في القارب	ما تنسم ساعة ياهوا

..

وأخيراً نور د تلك المقطوعة التي نخلدها الدين جندتهم « السلطة »
العسكرية الإنجليزية بأنواع من القسر والجبروت في الحرب العالمية الأولى
زاعمة أنهم متطوعون . وكان سيده درويش يقدرها ويقول عنها :

وأحسب أن الذى حركنى اليوم لتقديم هذا الكتاب للقراء ،
هو أن وطننا المحبوب الذى كان يؤرقنى ماعانا من مظالم ، هى التى
أوحى إلى بهذه القصص ، قد أذن الله له سبحانه وتعالى بمنه وكرمه أن
يفكك أغلاله ، ويحكمه أبناؤه ، وتم له العزة والكرامة ، ويتطلع
إلى مستقبل مجيد . .
عوف الله . . عوف الله . .

البوہی

الفصل الاول . بلاغ ورا بلاغ ١

دخل حسنى أفندى مكتبه : خطواته سريعة ، جبينه معقد .
وأخذ - أى خطف - البلاغ من يد الغفير ، وانفجرت من بين
شفثيه لعنة ضاع لفظها طى حداثها . يستدعيه المأمور على عجل ،
فيقوم من وسط عشائه مضطرا ، بعد نهار قضاه على ظهر الحمار .
وأخذ الغفير يرقب عيني (حضرة المعاون) تجرى أثر السطر ،
وتلشنى تلاحق تاليه ، فإذا به يرى التقطية تخف ، وزالت عن الخدين
خطوط قليلة ردت التكشيرة ابتسامة تطل . وقال الغفير فى نفسه وهو
بلع ريقه :

الحكام كده .. ياما اسرع غضبهم .. ياما اسرع رضاهم !
واستراح حسنى فى جلسته ، واستقام ظهره وأمسك البلاغ
بين يديه ، وباعده يتفرج برؤيته ، ثم بدأ يتلوه على نفسه فى تتممة غير
مسموعة . كلما نطق بكلمتين رد عليها بهزة من رأسه ، تصحبها
تلعية من حاجبيه ، وشاركها رجله اليمنى . فهى — من تحت المكتب —
تقرظ كل تلعية بنقرة .. ونخم تعليقاته والبلاغ بضحكة أمالت
رأسه ، تخرج من وسط الحلق ، ثم إلى الأنف ، وقد تعود إلى الحلق
ضحكة فاحشة ، خليعة عجزية .

وكان الغفير قد فهم منذ زمن أن حضرة المعاون : « عما يتمسخر
على البلاغ . ما هو العمدة مش ولد مدارس » . ومال بقلبه ضد العمدة
« بلدياته » مع المعاون الغريب ، رغم شخطه ونظره « . وابتسم هو
أيضا ابتسامة ذليلة كلها تملق :

— دا البلاغ اللى ح تقوم القيامة عشانه ؟ داهية تسم القفا
ياسيلى .

ضحكة أخرى أخف . وأخذ يعيد القراءة بصوت مرتفع :
فما أنه يتلوق السخرية من جديد ، وفيها أنه يتفكه بصمها كلها على
رأس الغفير الواقف أمامه كاللوح . ويشمله بتهكمه لتكون لذته
مزحوجة :

« ساعة تاريخه بمرورى من بحرى ، حسب أوامر سعادة البليك
المأمور . ما أشعر إلا ورأيت سليمان عبد العال ، فما كان منه إلا أنه

أخبرني أنه سمع بالاشاعة أن ناظر بوسطة مكتب الناحية بلدنا ،
عباس أفندى حسين ، اتهم على محروسة بنت الشيخ مبارك حال
كونها رايحة تشتري مترجاز من دكان الشيخ رمضان ، وأن المذكور
أعلاه اتهم على فرحانة بنت المعلم رضوان بعد صلاة المغرب ،
فانسرعت وجرت منه ، لاسيما أنه في الطريق العمومي . وبسؤالهم
لم واحد منهم اشتكا خوفا من القولة وكلام الناس . وللأهمية الجميع
مرسلين للمركز أفندم ...

عمدة كوم النحل

عبد السميع وهدان

حاشيه — عباس حسين أفندى عاصي على أوامر الحكومة وشيخ
الخفر ، ولم رضى ينزل معاه

عمدة كوم النحل

عبد السميع وهدان

لم تكن فصاحة البلاغ — ففيه « لاسيما » — هي وحدها سبب
ضحك حسنى . بل لم يستطع — وهو المعاون القديم في الكار —
أن يتمالك نفسه إزاء مكرالعمد ، يبدو في مثل جديد . ولكنه هذه
المررة مكر صبياني يحاول أن يخبئه عبد السميع وهدان بين السطور .
ففي أول البلاغ (أوامر سعادة البليك المأمور) وفي آخره
(للأهمية) ... رجل خدام حكومة يخلص نفسه من المسئولية ،
ليس له يد ولا إصبع ، ولكن أين من يقرأ هذا البلاغ ولا يفهم

أن بين العمدة و (ناظر بوسطة الناحية بلدنا) حزازات ، أو بتعبير
العمدة نفسه : « حقاظات ، وخصومات » ... ليس في البلاغ
شكوى من أحد المحبى عليهم .. والمرسلون للمركز ، والوقت ليل ،
شهود قد يكونون غير متطوعين .. وحسنى ليس في حاجة لهذا البلاغ
ليفهم ما بين الرجلين من خصومة . فهو يعلم أن ناظر البريد يسكن
أحد منازل العمدة ، وبسبب ما شب بينها حول هذا المنزل من جدل
كله عناد .. العمدة يصر على أن يخرج من داره هذا « الأجرى »
الرحال ، ليس له عشيرة تلمه ولا بلد يقره . ماهيته ؟ يدفع مثلها
حلواناً للصراف ولا يبالى . والموظف المتعاضم ببذنته وطربوشه ،
وسلطة الوظيفة وراءه ، يتكبر على هذا الفلاح الجاهل ، الحلف
مكانه وراء الحماموسة لا بين الناس .. يجب أن ينهزم أمام الحكومة .
ولم يكن حسنى لسي بعد كيف جاءه العمدة من قبل شهر يشكو .
عباس ويطلب إخراجه من المنزل على عجل . ولمح له أنه يستطيع
بفضل الوسائط أن ينقل خصمه من البلد كلها ، لا أن يخرجهم من
الدار فحسب . فوعده حسنى بكلمتين حلوتين ، أن ينفذ له غرضه ،
وهو ينوى أن يصلح ما بينها . وانتهر فرصة وجوده في كوم النحل
بعد يومين ، وعرج في طريقه من المحطة الى البلد على مكتب البريد .
ولم يكن رأى هذا الشاب العنيد من قبل ، ولم يشأ أن يستدعيه إلى
دوار العمدة ، حتى لا تكون « الكرامة » سبباً للرفض ... وقف
حسنى أمام الشباك ، وأمسك بأحد أعمدته ، وأطل من بين عارضتين :
يا عباس أفندى ؟

فواجهته رأس على كتفين تقبع فوقها كالياضة كلمة (بوسته)
خيطت من قماش أصفر بخط قبيح .. ورأى وجهاً مطاولاً يخرج
منه بوضوح ألف دقيق . فتحناه ضيقتان ، تحتهما شفتان رقيقتان .
فوق الجبين شعر أسود فاحم ، زاد إهمال صاحبه له من جمال حلقاته
المشبكة .

يا عباس أفندى ! كنت عاوز أكلّمك فى كلمة صغيرة .
أفندم .

مش من صالحك تخانق العمدة ، أنت راجل منا وعلينا ..
أنت أخونا وأنا أقدم منك وأفهم الراجل دا ... دا راجل طيب لسه
عيل . الواحد يضحك عليه بكلمتين يتبقى زى العسل . يهب يهب
وبعدين ينطقى
— دا لسانه زفر ...

لا ... لا .. أنت غلطان

وأستمر الكلام بين الوجهين ، ينقلان كل حين وآخر مكانهما
بين قضبان النافذة . ثم لان الحديث ، واختلطت أعمدة الحديد
بالابتسامات والضحكات ، ومد عباس يده فصافحة المعاون .. ولما عاد
إلى المركز ظن أنه قضى على النزاع وأراح نفسه ، بالأخص — من
تحقيق شكاوى العمدة فى المستقبل ...

فإذا هذا الامل يهدمه الغفير الواقف أمامه ..

لا يستطيع هذه المرة أن يصرف المسألة « حياً » أو يضحك على

عقل الاثنين بكلمتين من كلامه الحلو . فهذا بلاغ به رقم وفيه مسئولية ولكنه لا يدري لماذا لانطاوعه نفسه على السير في تحقيقه ؟؟ فليس من شك أن وراءه ضرراً لهذا الشاب .. ولكن ما الذى يربطه به ؟ وماذا يهمه منه ؟ فى قرارة قلبه ميل خفى .. هل مبعثه حلقات الشعر المشبكة ؟ أم إحساسه بالشفقة نحو هذا الوجه المدفون فى غرفة مظلمة رطبة فى بلد حقير ؟ .. عندما صافحه من بين ثنايا العوارض الحديدية خيل إليه أنه يمسك بيد سجين . .

و « كلفت » حسنى التحقيق بمهارته وصرف الناس ، ثم قام إلى التليفون وطلب الصراف وكلفه أن يرجى عباس أن يكلمه . وبعد قليل كان فى صوته صداقة غير مفضوحة . وثبات وتأكيد . ويرن فى السماعة على أذنه صوت سريع اللهجة ، يتحدث الكلام . مهتاج اللفظ . ولكنه فهم ، ووعد بما كان حسنى يرجوه فيه .

فى اليوم التالى قبيل الظهر دخل عليه عباس وهجم على مكتبه ، يتكلم وهو واقف .. عضلات وجهه ترنحش ، محتقن اللون . وانفجر لا يتمالك أعصابه ... هو يعلم الشكوى المقدمة ضده .. ماذا فيها ؟ أنه يفعل ما يريد . ولو أراد لفعل أكثر من ذلك . على أن هذا لم يحصل . وماذا فيه لو حصل ؟ إنه يهزأ بأقصى ما يمكن أن يطلب منه كرد شرف .. أمن أجل المنزل كل هذا ؟ ماذا قال لهؤلاء البنات ؟ هل سب ؟ لبس بسبب . هل سمعه واحد ، واحد فقط ، لا يكون من أتباع هذا العمدة السيئ النية ، الخبيث ؟ أو يشهد بأنه كلم البنات

كما يدعى - فى الطريق ؟ . المنزل رطب ودون ولا يستحق الإيجار الذى يدفعه . ان أراد إثباتا يحضر له « الإيصالات » . إنه يقسم بالله ألف مرة أنه لا يعرف هؤلاء البنسات ، حتى أسماءهن . الشمس لا تدخل غرفة النوم ، والفيران كالقطط . وهكذا وهكذا . وهويلوح بيديه يكاد ينكئ على المكتب ، وأصابته حركته الدوارة . فاندلقت على الدفاتر ، ولكنها لم توقف من حدثه ، ولا قطعت تحديقه حسنى فى هذا الشاب المحموم ، تأسره من وجهه عيناه . لم يكن دقق النظر فيها من بين العوارض . فإذا به الآن أمام عينيّن تضيقان وتتسعان ، لا يستقر إنسانها لحظة . لهما بريق غريب . ماؤهما يغلى . .

أجلسه حسنى ، ولم يفتح به سؤال . وعند انصرافه أخذه من ذراعه وسار به إلى داره ، وأغلق عليه من « كولو نيته » . وتركه فى غرفة استقبال متواضعة ، ولكن كنباتها بأغطيتها البيض وجوها الهادىء تريح الأعصاب المتعبة . ولما دخل عليه من جديد ، وجدته ينحني وجهه بين راحتيه ويبكى بحرقة ونهبة متتالية . فانسحب دون أن يشعره بنفسه ، لعلمه أن الأزمة لا تنتهى إلا بهذا الانفجار .

نما العطف بين قلبيهما ، وأكلا معاً ، وقص عليه حسنى من ذكرياته وتجاربها حكايات تنسى المموم . فابتدأ عباس يعود للحياة ، وشكا له أنه تعب من صحته فى الأيام الأخيرة . فهو يأرق بالليل ، يشعر فى الصباح أنه يقوم من عمل شاق ، فجسمه مجهد مكسر ، لم يرتو من النوم والراحة ، أقل الأسباب - بل أتفهما - يستفزه الآن على خلاف

طبيعته ، فينفجر فجأة ويهب . له حدة تعلو درجة درجة حتى يفقد
سلطانه على نفسه ويصبح كلامه خليطاً من صراخ غير مفهوم ،
ثم يهدأ على دوخة تملأ رأسه وتكاد تصم أذنيه .

أمس جاءته هذه الدوخة في الطريق . لا يدرى ماذا فعل ؟
وهنا تلغى وتخفى ببصره وصمت . ثم عاد يؤكده أنه لا يعرف الفتيات
كل البلد تعلم عنه الشرف وبعده التام عن المسائل النسائية .
وأكبر دليل هو أن النسائيات معدومة من نفسها بالمرّة في كوم
النحل ، وهى بلد كالحق .

وانتهى النهار على صفاء . وأكد له حسنى أنه واجد حلاً يقضى
على خطر البلاغ . ولما هم يقوم ، شد الضيف على يديه . فابتسمت
له عيناه ولكن ليس فى نظرة حسنى الفاحصة ولا شعوره الحساس ،
ما يطمئنه على أعصاب هذا الشاب ، ولا على ما تخبئه له الأيام .

لم يطل صمت عبد السميع وهدان . فبعد أسبوع واحد كان
عباس من جديد موضوع بلاغ آخر . وفى هذه المرة ترك العمدة مكره
وأناقته فى الأسلوب ، وعدل عن اللف والدوران ، وكتب بلاغاً
قصيراً صريحاً ، ليس فى آخره تحريض . فى بعض الأحيان يكون أسلوب
العمد هو أصدق وسيلة للتعبير عن بعض جرائم الريف ، وتكون
سداجة الكلام هى الإطار الوحيد الذى يتناسب وما لجرائم الفلاحين
من صور بدائية . والحادثة الجديدة ، وإن لم تكن من ضمنها ، إلا أن

بساطة الأسلوب ظلت قالباً ملائماً هذه المرة ، لالتوافقه بل لتناقضه .
فقد تضمن البلاغ الساذج حادثة مشتبكة لا يمكن فصل عناصرها .
هى مزيج من التعقيد والبساطة ، من المحتمل والمستحيل ، من التعقل
والجنون . ولم يكن غير هذا الأسلوب — الذى يظن أنه آخر ما يصلح
لوصف هذه الحادثة الشاذة — يستطيع أن يلم على الورق — بالبساطة ،
رأساً من غير تطويل أو فلسفة فارغة — ما للحادثة من شتات مائل
الوضع ، متنافر الأجزاء ، مشير للدهشة والعجب ، ومن صميم كله
حزن وفجيرة

عباس عائد فى الصباح المبكر إلى المحطة ، راكباً ركوبته فوق
الجسر ، أمامه حقيبتيه الصفراء مملوءة بالخطابات . يشير دهشة أفواج
الفلاحين الذين يمر عليهم ، لأنه لا يرد سلام من يحببه منهم .. له
ظل واضح الأطراف متعلق بأرجل الحمار ، وسطه ملتو على الجسر
المائل ، وآخره يتسحب تحته على بعد — كالمراقب الحذر — فوق
الغيط المجاور . فى الجو نسيم مشبع ببرودة يستلذها الوجه ، وفى السماء
قطع من سحب ، عذارى ، رقيقة الحاشية ، زاهية اللون ممشطة
مترفة ، تسير الهوينا — متداخلة متفارقة — للتنزه والتمطى فى الشمس ،
فهى شفاقة مبتسمة ، ليست سودا ولادكنا ، كأخوتها الحبليات بالمطر
وفجأة رأوه يفتح الحقيبة ويتناول منها بعض الخطابات ويمزقها أرباعاً
ثم يرميها بذراع مفرودة فتطير فى الهواء كالريش ، ثم
يعود من جديد ، والفلاحون يحملقون فيه لا يدركون علته . بدأ

بعضهم يضحك .. وجرى آخرون وراء قصاصات الورق ، ثم
اتجهوا وتجمعوا عليه . لا يكاد يقوى على البقاء فوق ظهر الحمار ،
فهو مخني يهتز - ورقبته ليست منه - إلى الأمام والخلف . عيناه
مريضتان قد انطفأ بريقهما .. وجهه أصفر ، وحالته كرب .

الناظر عيان ...

دا مسوراً ...

رشوا عليه ميه ...

وأحاطوه بالأذرع . وسندوه بالأكف ، حتى أبلغوه منزله ،
وحملوه إلى فراشه .

٣

لم يكن في تقدير حسنى أن يتحقق ظنه بهذه السرعة ولا على
هذا الشكل ، فهو لم يتم قراءة البلاغ الحديد حتى ترحم على مستقبل
هذا الشاب . وارتسمت أمامه صورة عباس أمام وكيل النيابة يلاحقه
بالأسئلة ويفتش ثيابه . عله يعثر على نقود سيدعيها - في أغلب الأمر
كذباً - بعض أصحاب الخطابات . فالفلاح يعرف كيف ينهز
الفرصة . ثم يتلوه مندوب مصلحة البريد بأنواع من الأسئلة الأخرى .
كل هذا وهو مريض ، وحيد ، في منزل مقبض ، في بلد يرأسها عدو
يشعر - وهو على بعد - بشماته .

قصد حسنى أن يصل لكوم النحل قبل الجميع . يود لو يستطيع
أن يقتطع من الزمن بضع دقائق ينخصصها لمقابلة وحديث بينه وبين

عباس ، حتى لا يتداخل أو يقاطعه فيها أحد . ولكنه فى القطار هبطت حماسته وسرح ذهنه فى أفكار عديدة، تبدو أن لا رابطة بينها وبين البلاغ . ومع ذلك كانت حادثة عباس المحزنة هى اليد الخفية التى تحرك أفكاره . لا تنجم بها إلا على كل فرع أجرد ، أو ماء آسن . وصل إلى المنزل وهو متعب ، ليس على لسانه كلمة من كلمات التشجيع التى جمالت فى ذهنه من قبل . فهم من الغفير الواقف على الباب أن عباس لا يزال فى فراشه ، وأن العمدة أجهد نفسه فى جمع قصاصات الورق ، فبلغ عدد الخطابات الممزقة حوالى الأربعين .

وجد حسنى صديقه راقداً فى سرير صغير ، فى غرفة مملوءة بالتراب وأسراب اللباب . أمامه منضدة صباح مخربشة كالحة ذات ثلاث أرجل ، وكرسى واحد . أخذه حسنى وجلس بجانب النافذة .

ولما رآه عباس حاول القيام . ودلى رجلين نحيفتين يبحث عن قبقباه . العيون التى كانت تلهب رماد قديم .. حركاته بطيئة مجهد . أين عباس الثائر وحدته ، من هذا الجسد النحيل المحطم ؟ وجهه فى صفرة الليمون ، ولكنه هادىء ، بل حاول الابتسام فبدت على شفثيه ابتسامة ذابلة ، ما أجدت إلا أنها أكدت مرضه .

— أحسن ؟

— أحسن كثير .. والحمد لله .. نمت شوية .. كنت سخن .

— ورينى ..

مد له عباس يده ، فأمال كرسيه وتناولها بكفه لحظة واحدة ،
ثم تركها .
— لا .. حرارتك عمادية . مافيش حاجة .

لمسة اليد هي التي فتحت الطريق . عاد عباس إلى السرير ، وأسند
ظهره على الجدار ، ورفع ركبتيه حذاء صدره وغطاهما ببطانيته .
ثم بدأ يتكلم على مهل ، كأنه يتلذذ بالحديث .. مرة من أول الموضوع ،
ومرة من وسطه ، وربما جاء بالنتيجة قبل السبب . يطيل على هواه
ويقتضب . أغلب الأمر أنه كان غير واضح ولا منطقي في سرد ما
يقوله .. ولو كان أمام غريب لقاطعه بألف سؤال واستيضاح .
ولكن حسنى لم يفتح فمه . ذراعه على حافة تعمد رأسه أحياناً .
عيناه صادقتان مواسيتان تشربان من الحديث . لا لبس في نظرتها ..
هو فاهم . وشاعر بكل ما في قلب محدثه . رغم الغموض والاضطراب
وضياع المنطق والتسلسل . ولم تفتبه نغمة واحدة ، مهما كانت خافتة ،
من لحن صديقه .

الفصل الثانى . عباس . . أصله وفصله

١

نشأ عباس من أسرة كل أفرادها موظفون صغار لم يرحوا القاهرة . كلهم يؤكدون أنهم من سلالة عربية (تشهد عيونهم السود ووجهه الضيق الطويل) ، وبعضهم يضيف أنهم من السادات رغم أن سلسلة النسب الغريب التى يحفظونها تنهى عند جدهم الثالث كل ما يعرفونه عنه أنه هبط مصر من طرابلس ، واستقر بالفحامين فى تجارة صغيرة قوامها الشاى والبلغ . وعند وفاته أقفل الدكان ، وتفرق أولاده من المدارس على وظائف الحكومة . معظمهم مات بعده بقليل ، وهم فى مطلع الرجولة . فقطعوا بذلك ماضى الأسرة عن جيلها الحاضر .

ظل عباس لا يرى في هذه التفاصيل سوى حكاية يسمعها ويرويها ولا تؤثر على حياته . إلى أن انتصفت دراسته الثانوية . فاستيقظت فيه عاطفة من الغيرة كلما رأى - إذا اقتربت الإجازة السنوية - طلبة المديرية الواحدة يجتمعون ويتناقشون في موعد السفر ، والتذاكر المخفضة للجماعات . وجرح قلبه . هل أسرته نبات شيطاني عاثم على وجه الماء ؟ في نفسه ضعف لشعورها ، بأنه ينقصها - على خلاف من حولها - جذور قوية تربطها بمكان معين . إجازته كدراسته تمضي في منزل لا يستقر في حي واحد ، يصغر ويكبر . ويطول ويقصر . وأخذ يصبر نفسه . يتذوق دونهم لذة لا يعرفونها . فهو قد فهم من محادثته معظم هؤلاء الزملاء أنهم ما يكادون يصلون لبلادهم حتى يخلعوا بلثهم ولا يرونها إلا إذا حان موعد الرجوع . أما هو فبعيد عن هذا الانقلاب وهذه الحياة ذات الوجهين . قبلته موجوده كل يوم تنتظره بعد العصر ليخرج يتجول بها في شوارع القاهرة . له ثلثة من الأصدقاء سريعة تنقل الأهواء . مرة في قهاوى المالية تلعب الطاولة . ومرة في قهاوى أبي الريش تلعب الشطرنج ، وأحياناً في قهاوى سيدنا الحسين يتعشون بالكباب (اسم الطعمية في هذا الحى) . ثم إذا جاءهم فرج أول الشهر يتبخثرون بضعة أيام في شارع عماد الدين . هم فقراء لا يحتكم أحدهم على ريال صحيح ، ومع ذلك يشعرون كأن قهاوى القاهرة وشوارعها وفسحها ملك لهم .

استمر في دراسته إلى أن اقترب من البكالوريا ، فإذا بنوع من سوء الحظ أحاط بأسرته . لا يستطيع أن يضع إصبعه على حادثة معينة ويقول : هي السبب . فالأسر مخلوقات تهبط أحيانا تحت تأثير مرض خفي غير معروف يمنعها عن السر . أبوه - بلون مناسبة - أرتبك في عمله ، وأحاله قبل مواعده على المعاش . وأخته غضبت وعادت للمترل . لا هذه ولا تلك أثرت في حالتهم المالية تأثيراً جسيماً . ولكنها فتنت - بغير سبب واضح - من قوة تضامن الأسرة فتبعثرت وخرج عباس - مختاراً - من المدارس يبحث عن عمل ، فوجده في مصلحة البريد . ولبث في القاهرة زمناً يتمتع بمرتبه بصرفه وهو نشوان في تحقيق رغبات الصبا المتكتمة . كلما أذاقته شبعاً خلقت بدله جوعاً جديداً لأنواع مختلفة من اللذات . كالسلسلة المستديرة تأخذ الحلقة بعنق الأخرى .. ولكن دوام الحال من المحال . وجاء اليوم الذي صدر فيه أمر نقله : (ناظر مكتب كوم النحل) ...

من ساعة ما حطيت رجلى في البلد ما طقتهاش ، حسيت إني محبوس .. فين مصر وشوارعها ، وناسها ، وفين الليل مليون نور ، ونسوان رايحه وجاية ، وحركة .. لكن هنا : أهو الشباك قدامك .. بص .. تلاقى إيه ؟ شويه طين مكوم ، وناس وسخين مقملين ، وتو ما يذن المغرب كل واحد يتلم في بيته .. والعتمة ؟ ياباى من العتمة ياباى طول الليل حمير تنهق وكلاب تعوى .. أول امبارح جاموسة الجيران ماتت .. قبل ما يلحقوها بالسكين فضلوا يصوتوا عليها ، وهات بالطم .. جنازة حق بتحقيق . ما نمتش للفجر .. »

لم يكن حسنى أقل ضيقاً بالصعيد من محدثه . كل شفاعاته
أن ينتقل إلى بحرى . أطل من الشباك على بيوت واطئة متراسة .
الفقير منها بالخالوص (١) والغنى مبرقش بفتات التبغ فى طوبه التى .
كلها أقزام متراحمة متلاصقة كأنها قبيلة متوشحة ، على رؤوسها
شعر الهمج ، فى تلؤلؤ هشة من حطب القطن وبوص اللذرة ، ووصلت
إلى أذنه صرخات متعالية ، بعضها للإنسان وبعضها للحيوان ،
لا فرق بينها .. حدة الصارخ فيها واحدة . وعناد المتهمر سواء ..

على أن عينه لمحت . من فوق أكوام الوقود خضرة ممتدة .. لا يرى
فيها شيئاً بوضوح . هو حقل فول لم تظهر قروونه بعد . أزهاره فى
مقتبل عمرها ، بعضها أبيض ، وبعضها ضارب للحمرة .. كلها تهتز
فى حركة خفيفة . لا يستطيع أن يحس بها من رؤية القرون مهما كثرت
بل لا بد أن ترتعى نظرتة وتشمل الحقل على امتداده . الحركة تجول
فيه ، مختلفة النمط هنا عما هناك . ولكنها رغم هذا الاختلاف شخصية
واحدة لها سحر . العيدان كلها — فى هزة المرتلين — تشترك فى
أنشودة خافتة معسولة .

فى بعض الأحيان يمر بركوبته وسط هذه الحقول وتشمله بعطرها
فينسى كل همومه ، وثقاله الصعيد ، ويسرح ذهنه ، ويشعر أن
ما بينه وبين الله قد عمير من جديد . هو أسير الصعيد ، ولكنه مدعن ،
موطد نفسه على الرضا بما فيه . أما عباس فزهرة لا تتزع من أرضها

(١) قطعة من الطين الجاف تستخدم فى بناء بيوت اللادين .

إلا بتلف جذورها ، فهي لا تنشبت بعد ذلك فى منبت جديد .
لا يقوى على البعاد عن القاهرة : أمه وعشيقته . هو كالنحلة تستمد
حياتها من زحام الخلية ، وإن كتم أنفاسها . فإن وجدت فى وحدة مائت
ولو كانت فى أطيب مرتع وأرفه حياة .. وعميت عيناه عن ثروة الصعيد
فى سمائه وحقله ، وسمرت على أكوام الحطب .

٢

« والأدهى من كده أن دى أول مرة ألبس فيها بدلة البوسطة الملعونة
دى . عامل أفندى بالكذب . لا طلّت عنب الشام ولا عنب اليمن .
عمر الفلاحين ما بصوالى وأنا فى البدلة الصفراء دى ، زى ما بيصوا
باحترام لمعاون دودة حقير ، ولا كاتب صحة أصله مزين علشان
لا بسين بدل . كلهم يعرفونى . لكن ماشفتش واحد ، بلاش أنك
وباه ، أنكلم معاه . العمدة راجل جلف زى ما أنت عارف . حتى
الصراف هنا من طرز زمان ، عجوز وبعمه . أقرب أفندى لى
ناظر المحطة ، ودا عشان أوصله لازم أركب الحمار تانى وسط العفرة
٣ كيلو . بقيت أخرج من المكتب للبيت ومن البيت للمكتب . كنت ح أجن
أبني معنور ولا لا ، إذا كنت اتعلمت الشرب ؟ كل ما اتزل البندر
أجيب إزازة أو إزازتين كونيالك . كل مصروف إيدى رايح على
الخمرة . وأخرتها اتهدلت بقايا القيافة بتاعت زمان طارت ، وبقيت
أسيب دقنى بالجمع ، واتعودت أروح بالجلابية والحاكته للمكتب .
ما ألبس البنطلون والياقة إلا لما بجي مفتش . ليه خوة الدماغ ، واقلع
والبس فى البدلة وانت وسط الناس دول ! !

وابتسم عباس بحسرة وتندم ، ثم صمت . له كل حين وآخر
ضربة خفيفة على ركبتيه . كأنه يروض نفسه العاصية على البوح بما في
صدره :

« كان الكلام ده قبل الوقفة بيومين . وأنا واقف في المكتب جالى
الصراف وورانى قصقوصة قماش صغيرة فى ايده زفير ولا بوبلين
حاجة زى دى . وقال لى :

— يا عباس أفندى . حاجة لقطة ، والبياع قومسيونجى صاحي
تحب أجيب لك كام متر من دا ؟ يعجبك ؟
— عشان إيه ؟

— ليه ؟ مش ح تفصل لك جلابية على العيد ؟

مش فاكر قلت له إيه ، فاكر إني رحت أودة تانية . حاجة
ميرانى . أضحك ؟ دى أول مرة أسمع فيها إني أبقى زى ولاد البلد ،
وأفصل بدل البدلة جلاييه . تصور ؟ كل فرحة العيد قال تفصيل جلايية !!
حاجة تضحك ولا تبكى ؟ الدمعة طفرت من عيني مرة واحدة . وهات
باعياط . . عمرها ما حصلت لى . ما كنتش أتصور أن كلمة سخيفة زى
دى ، تخليني أعيط زى العيال العياط دا كله .

٣

كم تحسر عباس فى هذا الوقت على أن اللحظة الذى رماه فى كوم النحل
لم يجزه بإساءته عملاً مسلياً يعينه على تحمل الوحدة التى تكاد تقصف
عمره ، وتطير برج عقله . كان يحسد ناظر المحطة وعامل « البلوك » ،

بل وخفير « المزلقان » ، لأن لهم في القطارات وحركة المسافرين ونطلع الوجوه ، ما ينقذهم من وهدة الضجر والسأم . أما هو فعمله إلى رتيب ، في غرفة ضيقة لا مفر له منها . في أول الأمر كان له في الخطابات جدة تأخذ عليه جزءا من تفكيره . وربما تفكه بما على الظروف من أغلاط الإملاء ومبتكرات الفلاحين . (من مصر المحروسة لكوم النحل قبلى) ، (إلى كوم النحل المحطة ومنها إلى كوم النحل البلد) كلها . (خير وسلام) ، و « بدوح » بأرقامها ، ومن « يد ليد » إلخ إلخ ولكن بعد قليل حرمه التكرار حتى هذه المتعة الضئيلة . وأصبح يحفظ عن ظهر قلب أسماء من ترد لهم بجوابات وجهة ورودها . بل أصبح يستدل على صاحب الخطاب ، لا من قراءة عنوانه ، بل من شكل الظرف أو خطه أو لزامته ، وكره عباس أيامه ، وبدأ له عمله في صورة سلسلة من الخطابات موكلة به ، كالصبية حول معتوه تشاغله ، لا يصفع الواحد منها بختمه ، حتى يجيء له من جديد ، هو هو بداته لا يتغير ، يخنقه في كيس أصفر ، ويقذف بجثته في القطار ، فيجده - بعد أيام - على المنضدة يصبح عليه .

وهبطت على عباس رحمة من الكونياك فعمت له ذهنه ، وأرخت أعصابه ، وعلمته كيف ينسى عمله وأطواره نسياناً يكاد يكون تاماً . يؤدي وظيفته كالمنوم المسوق ، وزاد إهماله ، وعلا التراب كل المتاع .

على أنه وإن تخلص من ملل العمل لم يستطع أن يهرب من وحدة

المعيشة . هي التي وسوست له من جديد . وأعادت له التفاته إلى
وظيفته ، ولكنه هذه المرة التفات خطر . فقد بدأ يأخذ الخطاب بيده -
كأنه يزنه - ويطيل إليه النظر . ثم يضحك . ما هذا العالم المتشابك ؟ !
حتى إلى أصغر القرى تصل هذه السلوك من الورق ، تربط الناس
بعضهم ببعض مالا يربطه الحديد . ليس يفهم ما بين الناس من تماسك
إلا من يدخل مكاتب البريد . هذه الجماهير التي ترى حرة في الشوارع .
في أثرها رسائل تلاحقها وتأخذ بتلاييبها ، تصدمها وربما عرقلتها وكفأتها
أو غيرت مجرى حياتها إلى مالا تظنه ولا يخطر لها على بال . قد تكون
استجداء أو تهديد ، شكوى أو تحكما ، بعضها قسوة وبعضها استرحام
قد تكون محبة أو عدا . مكتوبة بالعطر أو بالدم . قد تكون كلها أرقاما
تمثل خراب بيوت ، وقد تظفر وحدها دون غيرها بدليل على خيانة
زوجة طاهرة ، أو اعتراف بجريمة . وقد تكون بعد ذلك تافهة ،
غثة ، تمثل ما في الحياة من رغاء كهدير الإبل ، ولكنها - رغم ذلك -
لها قيمتها لأنها مغلقة ، مجهولة ، مطوية ، فلا يختلف جواب عن جواب
كلاهما سر محجب لو لان الصمغ لا نكشف عن أمر عجيب .
وحتى لو لم يظفر المقتحم بشيء فإنه سيقع على أمثلة من طبائع الناس
وأهوائهم : سيشجيه أن يرى كيف يضع الله في كل قلب ما يشغله ؟
لا يتشابه قلب وقلب : كلها مسارة روحها مصونة ، لا يفسدها الجهر ،
فالطبيعة فيها على حالها : لا موارد ولا خداع . وربما لا تحوى الحياة
متعة تقارب لهذه تتبع رسائل عقل حساس - أنا كان عصره أو طبقته .

وأخذت يد عباس تأكله. ورغم اجتهاده لم يستطع أن يفهم البلد وعقليته. وشهوات أهله ومناحي أفكارهم. فهل يكون عمله هو المنحة التي وهبها له الحظ ليوقفه من كوم النحل على أدق دخائلها؟ وأخيراً - لسوء حظه - طرأ عليه وهم هو وحده الذي رجح الحجة المريضة. وقذف به إلى الجريمة. هذا البلد الكريه سلبه شبابه، يكاد يكون مقبرته. وهؤلاء الناس المثلثون، المصفرو الوجوه، المرضى العميون، يضمرون له - لأنه غريب - ازورارا وانقباضاً، كلهم يضحكون في وجهه [بنجث وتباله، وهو يفضلهم بتربيته وعقليته. ففي العمل الذي سيقدم عليه خير انتقام منهم. سيطويهم جميعاً عليه، وتضمهم قبضة يده، وسيقف أمامهم صامتاً ولكنه يهزأ منهم في قرارة نفسه. وسيكون هو الفائز لا محالة. سيحتاط للأمر، ويربط لسانه، ويكتم السرفلا يدرى به أحد. فليس من خطر. وكان مقدراً عليه في يوم، بعد انتهاء عمله، أن يختار جواباً غير محبوبك الظرف، ويفتحه على مهل ..

«... إيدي كانت بترتعش. خايف وبرضه مقاوح. لكن رغم دا ما شبعتش من جواب واحد. بعد ما قفلته فتحت جواب تاني. جوابات فلاحين حسابات وسلام وسؤال عن الأقارب. ومع ذلك كنت مبسوط. حاجة انزاحت من على قلبي. لغاية دلوقتي مانيش عارف ازاي قدرت أعمل كده... مش دي طبيعتي. لكن حاجة وزتني... والشيطان لعب بعقلي»

اعتراف ساذج لمس قلب حسنى فابتسم . . وقلبه حزين .
ليس عباس أول شاب يعرفه يأتي من القاهرة ليرتكب أول جرمه في
الصعيد . كثيرون غيره جاءوا أصحاب النفوس ، على وجوههم جمال
الرضا والاتزان ، في حركاتهم وملابسهم تألق ، فأصبحوا بعد زمن
غلاظ الوجوه ، سمان البطون ، ثقيلة حركاتهم ، نظرتهم حيوانية ،
وكلامهم بذاءة متكررة ، وفكاهتهم منحطة . أفكارهم سخيصة محصورة ،
ضيقة . حين يعودون لمدنهم ينكرهم أصدقائهم ، وتختلف أذواقهم
حتى كأنهم شعبان مختلفان .

الصعيد هو المسئول عن تلفهم . . فهم طيبو القلوب ، ولكنهم
من ضيق التربية بحيث لا يستطيعون السمو عن المحيط المنافر لهم ، أو
إخضاع ظروفه لمنفعتهم ، واستخلاص ما فيه من خير ، والإعراض
عن شره . فهم لا ينتقمون من جو الصعيد المقبض ووحده القاتلة إلا
في أنفسهم . يسهلون لها المترلق ، ويردون في عناد وتكبر إلى الهاوية .
بدأ أحدهم بكأس مع أصدقائه ، وينتهي بسكير مدمن . الخمر أهم
خزين بيته . . ويلعب آخر للتسلى ، فيصبح مقامرأ يسهر للصبح ،
ويوقف حياته على تشم أخبار « البريتات » . ثم من وراء ذلك من
ينساق إلى اختلاس هين ، أو سرقة تعد بالقروش . منهم من ينجو ومنهم
من ينتهى إلى السجن . .

ليست سقطة عباس إلا مثلاً آخر على ضحايا الصعيد . لا ينفرد
وحده بهذا الجرم . فكم في الأرياف من مكاتب يريد يفتح

موظفوها الجوابات ، لا يكتشف منهم إلا اللصوص الذين يتصيدون أوراق البنكنوت ، وتبقى جرائم الباقى مستورة ؟ بعضها تجسس على عدو معروف . وبعضها نتيجة عقلية موظف يعيش فى وهم دائم من الدسائس والوشايات والاتهامات ، فيحتاط لنفسه ويقرأ خطابات من يتوقع منهم الشر . . .

هذه الأصناف كلها يحتقرها حسنى وينفيها عن دائرة الإنسانية التى يتعلق بها . . . فهل عباس من هؤلاء ؟ جريمته واحدة . وقد يقول متشكك إنها أثر مما فى طيات نفسه من قبح مكتوم ، ولكن حسنى يثق بإلهام ووجدان فى طهارة صديقه . إن جريمته ليست إلا اختاما فجيعا لاصطدام عباس ، ربيب قهاوى القاهرة وشوارعها ، بالصعيد وطنه وفلاحيه . طبيعته قبل أن تفسد تكسرت ، فهو أحسن حظاً من بقية الضحايا الذين يموتون على مهل عفناً .

٤

« كنت فى الأول أفتح الجواب إلى يبنى تحت ايدى بالصدفة ، كله عندى زى بعضه ، تسليه والسلام ، لقيتها كلها سخيفة ، بقيت بعد كده أنقى جوابات ناس أعرفهم . من دول مرة صجوزة تيجى كل يوم الصبح تسأل بنفسها على جواباتها »

كل الناس يواجهون الشباك ، أما هى فجاءت ووقفت بجانب ، منكشمة ، الحياء يقطر منها . سألتها عن حاجتها فلم تغير موقفها

وكلمته . صوت مدلل ناعم ، ولهجة خليعة بلا سبب ، كأنها تعرفه
بل كأن بينهما علاقة ، وليست هذه أول مرة يراها فيها . . .
ما ليش جوابات النহারده ؟ مالك مصهن على .. يانحوى ..
دا الغشم ما كنش كده .

أم أحمد تتعصب بمندبل « بقوة مفلل » وتغطي وجهها بطرف
طرحتها قلما تزيجه ، حتى يظل لها بفضل رقة صوتها جمال الظن والحدس
على أنها إذا تكلمت تضعف من جديد أمام اعتقادها في نفسها وفي
حرها الذي لا يزول ، فهي تزيج لمحدثها طرف طرحتها لحظة واحدة .
ثم تعود لصوابها وتغطي وجهها ثانية في حركة سريعة ، كلها جبن
وتردد ، يتمثل فيها نزاع حاد لا ينتهي بين قوى متكافئة : غرورها
وحصافتها .

ناولها خطابها ، فمدت له يداً ، من حافة أظافرها إلى الرسغ
فروع من الوشم مغضنة ناشفة ، لم تفلح الحناء في تغطية زرقها .
— « من إيد ما أعدمه اش أبدا . . . يمتعك بشبابك ، تنهى » .
أخذت تبيته كل صباح فلا يخيب أملها ، جوابها مثلها في المواظبة .
لم يتأخر في يوم . . . الظرف الواحد ، ونخم البريد لا يتغير (مصر)
والخط على الظرف مهذب ، والكلام مختصر ، يكاد ينفرد عن بقية
الخطابات بهذه الميزة .

« كل ده خلاني أهتم بالولية دى . . . غايته ح تكون إيه ؟
الجوابات دى من قريب لها ؟ مش معقول . . . لما جت البوسطة

وشفت جوابها ، حاجة خلتنى مش قادر أسيبه من إيدى .. بصنعة
لطافة بشويش على السبرتوشوية شوية لما فتحته .. فكرك لقيت إيه ؟
جواب حب من الدرجة الأولى . . فيه بوس وأحضان وشكوى
وكلام فارغ زى ده . . ضحككت لما انفلقت . أول الجواب
(حبيبتي ونور عيني) . . مش مصيبة ان الولية دى تبقى لسه لدوقتي
نور عين ؟ لكن بقيت مش مصدق ، مش داخله راسى . لازم
المسألة فيها سر نانى . إزاي أوصل له ؟ سهل خالص . بصيت للإمضاء
لقيتها خليل . . جه فى بالى طوالى ظرف دايم ألاقيه فى الصادر
العنوان إالى عليه :

« حضرة المحترم الفاضل خليل إبراهيم أفندى

يحفظ بشباك بوسته الفجالة مصر »

لازم هوا . . ح يكون فى مصر كام خليل لهم جوابات
من كوم النحل ما فيش غيره فى الغالب . . تانى يوم فتشت الصادر
ع الجواب إالى فى بالى لقيته . . الظرف مكتوب بالكوبيا . خط منتظم
لكن حروفه واطية . حاجة نسوانى كده . . زى ما عملت فى الأول
عملت فى الثانى . فتحته . لقيت رد جواب أم أحمد كله حب هو
واخر لكن الإمضاء لأم أحمد ولا أم دياولو . . كلمة واحدة
معقولة : جميلة عرفت إنى أنا مش وحدى فى البلد . . أم أحمد
عامله بوسطجى معاى . تانى يوم لما جت لى ضحككت عليها وقلت لها :
— لك جواب مسوكر . . من فضلك أكتبى اسمك هنا .

— يا بنى ما تضحكش على . . دانت غالى عندى قوى وحياة
شرفك ختمى نسيته فى البيت .
فتأكدت . . ولما قلت لها دى كانت غلطة منى ابنسمت قوى
افتكرت إنى هزرت وياها مخصوص .
تقبت مراسلات جميلة وخلييل . . هى اللى تستنى الجوابات
الثانية . مابقنش أفتح منها ولا جواب « .

٥

فى مبدأ الأمر بدأ يشك أنها جوابات حب عادية كثيرة الوقوع
بين فقى بختنى وراء شباك البريد وفتاة وراء عجوز ، وأن عباراتها
متكررة وفى أغلب الأحيان متشابهة . ولو كان شعور عباس مقصوراً
على ماتراه عيناه ، لأمله ما بها من خلط بين الحب وأحاديث أخرى سخيفة .
فليس شىء أقرب لأصحاب الطبيعة النارية من الملل ، لديهم كل ثورة
متعالية قصيرة العمر ، يعقبها هدوء كأنه الموت . ولكنه فوق ذلك —
ذو قلب حساس . اهتز كالعصا التى تكتشف المناجم الخبأة . فوق
كنوزها المدفونة بين السطور ، شىء نخبى فى هذه الخطابات تعلق
بقابه ، فأصبح لا يستطيع الخلاص منها . .

بعد مدة بدأ بينه وبين الفنى نفور . . فهو يكتب بالحبر ،
خطه جميل ، ولكن أثر التصنع والمجهود فيه ظاهر . شعر عباس أنه
أمام شخص (يحسن خطه) أكثر مما يعبر عن شىء . يبدأ كل مرة

من طرف الورقة المثني ، و يضع التاريخ دائما في أول الصفحة من اليمين ، و دائما بالخط النسخ يحيط إمضاءه بخط يخرج من حرف اللام و يرسم فوقه دائرة صغيرة تبدأ منها دائرة أخرى كبيرة تشمل الكلمة كلها . في كل جواب منه فراغ أبيض قصرت عنه أفكاره أكثر أحاديثه عن حركات مادية . من أوائل الخطابات التي فتحها عباس ، خطاب يحكى لها فسحة في القناطر الخيرية مع بعض أصحابه بدأه باللغة العامية ، فلما جاء للحدائق وصفها لها بلغة فصحي فيها كثير من السجع . كل هذه المظاهر جعلت عباس يعتقد أن خليل شخصية ضحضاحة قوامها الغرور . . و ظن في مبدأ الأمر أنه لا بد أن يكون تلميذا .

ضاعت قيمة جوابات خليل في نظره ، ولم يبق له إلا جوابات جميلة . لم يكن تقديره لها من أثر المقارنة بين الاثنين . فأصحاب الطبيعة الصافية ولو أنها مشتعلة كعباس ، لديهم استعداد موهوب يفتح أعينهم للإحساس الصادق . . وكانت كل مظاهر جواباتها تدل على أن حب جميلة مخلص غير كاذب ، يشغل حياتها ويأخذ تلميها كل تفكيرها . . وقد ساعدتها الظروف على أن تكون كتابتها أرقى . فليس في القرى للفتاة حياة مادية تستطيع أن تتحدث عنها . هي في أغلب الأمر حبيسة دارها . فاقترنت جميلة على و صنف شعورها وأفكارها تنقص له - من جديد - ذكريات قديمة بينها . وليس من جواب إلا تضمنه أملا لها في المستقبل أو ثقها بعدالة الله . لم تحاول

مرة أن تكتب باللغة الفصحى، مع أن الدلائل تدل على أنها تعرفها ..
كتابتها تنتهى دائماً - وكأنها مرغمة - فى آخر الورقة . خطاباتها
كالظروف مكتوبة بقلم كويبا . مرة تبدأ من الطرف المثنى ، ومرة
من الطرف المفرد . جواباتها على الورق المسطر بالمستطيلات ، وفى
بعض الأحيان تكتب على ورقة كراسة . كثيراً ما تهمل التاريخ
و كثيراً ما يكون فى خطها حروف أكثر ظهوراً من غيرها بتبلىل
الورق ، دلالة على أنها تسهو فى بعض الأحيان وتضع القلم فى فمها
تبدأ الجواب بحروف متقاربة، وتنتهى به وقد اتسعت. لاحظ عباس
أن هذه الظاهرة تتكرر فى الخطاب الواحد ، فاستنج أنها تكتب
الجواب فى بعض الأحيان على جلسات متعددة ، ومع ذلك لا
يستطيع من يقرأه أن يلحظ أى انقطاع فى روحه . الكلمة التى قامت
عنها ، هى فى ذهنها عندما تعود .

٦

لم يكن عباس جاسوساً دينياً يستمد كل لذاته من اطلاعه - مجرد
اطلاعه - على أسرار يظنها صاحبها فى مأمن ، سواء أكانت أسراراً
ذات خطر أم تافهة . بعض النسوة يقفن بالساعات وراء الستائر
يراقبن جيرانهن يؤدين خدمة المنزل . فهو أو كان كذلك لارتد شعوره
ساعة فتح الجواب وانحصر فى نفسه لايهمه - بل وربما لا يفهم -
ما يقع عليه بصره . يغمره نجاحه فى معرفته للسر بالغبطة المريضة ،
على وجهه ضحكة صفراء نكراء ، خبيثة ، ممروزة ، هى أكثر
ما تكون تهلل الشيطان الذى يتلبسه .

أما هو فبعيد عن هذا . قلبا يفكر ساعتئذ في نفسه ، إذ يشعر أنه انتصر . ليس على وجهه أثر للغبطة ، بل بالعكس ، شيء في هذه الخطابات يهصر قلبه ويميت شفتيه . أهو من لدمه على جرمه ؟ أم لأنه استفاق لأول مرة في حياته على ضجة الدنيا ، نختق طيها نغمات قد تكون خافتة ، ولكنها أصيلة ! هل كان يظن أن أسطح القش وجدران الطين في كوم النحل تحق قلباً متوقداً ، يتفطر كل يوم على الورق ، ولا يهدأ أو يلدو ؟ كيف احنالت جميلة حتى ضمنت أم أحمد في صفها ؟ وسط أي الصعاب تم جوابها ؟ يعتقد عباس أنها تكتب بالكويبا ، لأن القلم أسهل في الإخفاء من الريشة والدواة .

ما كان يظنه لهواً وتسلية انقلب إلى شغل شاغل ورباط وثيق . أصبحت هذه الخطابات جزءاً من حياة عباس ، لا يستطيع أن يستغنى عنها . هو من قبل يحىء أم أحمد يفتش عن جوابها ، ولا يرسل البريد إلا بعد أن يتأكد أن ليس به جوابات من جميلة . فإذا ظفر به وضعه في جيبه وتملكته حمى العاشق ، لا يطيق مرور الساعات التي تفصله عن اللقاء .

فعباس يختار لقراءة هذه الجوابات ساعة متأخرة من الليل ، وربما بين كأسين . يجلس بجوار النافذة ، سندا ذراعه على مائدته ذات الأرجل الثلاث ، وجهه في عمرة ضوء المصباح ، ولكن في تقاطيعه الساهمة حزن بعيد عن الانقباض مستريح غير قلق . خلفه كائن قريب منه ، إن أراد أن يراه ، فما عليه إلا أن يدير للنافذة وجهه فيقابله .

ليل في ظلمة العمى ، تلفع به الكون مرعماً ، هبط على الفضاء حملاً
ثقيلاً ، أحاط بالأرض كالقيد ، غطى الحقول كالكفن ، ولف
القرى كالضهاد . وانحدر - ولاحد لا تساعه - إلى الشقوق فاحتواها .
ثم تلفت يبحث عن مداخل النفوس التي يعلم أنها تستقبله وتشر به
فاحتلها يتمطى فيها . هو الآن في كل زورة لكوم النحل يتسلل كاللص
إلى قلب عباس ، على غفلة منه ، كصندوق الراديو لا يعلم السر الذي
يحتويه . . إلا إذا ضغطت يده على مفتاحه .

لا ينتهي عباس من قراءته حتى يغشاه الوجوم . في قلبه وسواس
خفي يشعر أنه صادق لا يخطئ . يهمس له أنه يطل على الفصول الممهدة
لأساه ، ويكاد يحس بيد خفية تجذبه شيئاً فشيئاً من غيباً المتفرج
المجهول ، إلى حلقة النزاع التي تضم رأسين لا يشعران بالسيف
المعلق فوقهما . . حتى يصبح الخطر واحداً للجميع .

في الحياة مصائد تعلق بها قدم الإنسان من حيث لا يحتسب ،
فلا يستطيع الخلاص منها وإن أجهد نفسه . فهل كان يخطر على بال
عباس عندما فتح أول جواب أن قدر هذه المراسلات سيقاطع قدره
ويختلط الاثنان جميعاً ؟ أن تكون في أول الأمر لعبته ، ثم في النهاية
مصرعه ؟ لم تصبح مراسلات بين اثنين . . بل بين ثلاثة ولعل أكثرهم
تأثراً بها من لم يخط فيها حرفاً .

« تقلت في الشرب شوية . وفي الوقت ده بقيت أنام الليل وأنا
خايف ، وجاءت لي أحلام مزعجة . وفمت مرة وأنا مفزوع أصرخ .

ما فيش حد في البيت غيرى . آخر ما غلبت اترجيت غفير الدرك انه
يبقى دايم موالينى . فات على كده حسة ثلاثة أشهر وأنا ما يفوتنيش
جواب واحد . كنت الأول أضمن حاجات كتيرة ، لكن بعدين فهمت
من الجوابات تاريخ البلت دى من أوله لآخره ، لكن من هى ؟
ما عرفتهاش أبداً ولا شفتهاش . كنت خايف لو لحت لأم أحمد تكون
مرة بنت حنت ، تفقسنى وتودينى فى داهية مرة ملعب مش مساهل .
اتشمتت من هنا وهنا عرفت أنها تدخل كل بيوت البلد تقريباً . ازاي
أعرف ؟ مش ممكن . بقيت أبص للبنات الى ماشيين . كلهم الطرحة
على وشهم ، ملفوفين فى ملايات سودا ، مصبوغة منيلة تخرنخش زى
الورق . يمشو لازقين فى الحيطه زى اللى راح يدخلوا فيها . ما تلمحش
وش واحدة منهم . بين فيهم تكون جميلة . حاجه تبجن . كل
واحدة أشوفها أحسن أن قلبى ينتفض ، مش يمكن تكون هى ؟
كل الى عرفته كان على أم أحمد . كل ما استفهم الاى ناس
كثير يعرفوها ويحكولى عنها . ولما فهمت السبب فى إن جوابات خليل
تيجى عليها ، عرفت المسألة من أولها لآخرها .

الفصل الثالث • جميلة وبنت ناس

١

كوم النحل من أعمال مركز . . . بأسوط . ليس فيها أحد يستطيع أن يجيب : هل النحل هو الذى خلق البلدة ؟ أم هى التى خلقت لنفسها هذه التسمية ؟ كل ما يظفر به الباحث سطر ونصف فى خطط على مبارك : « مشهورة بجودة عسلها . بينها وبين مركز . . . خمسة عشر كيلو متراً » . لم يقرظها باسم أسرة واحدة مشهورة ، ولكن الظواهر تدل على أنها بلدة قديمة . قد يرجع سبب إهمالها إلى أن آثارها لم تكتشف بعد . فهى لم تتأثر بالطوفان العربى ، وتكاد تنفرد عن بقية بلاد المركز بأن اسمها ليس مسبوقاً « بنى » ، أو ينم عن اسم قبيلة . هى واقعة على الجسر « الطوالى » . بعدها عن الجبل نفور ظاهر عن حياة البدو . وارتفاعها عن وسط الحوض ترفع عن الزراعة .

والأغلب أنها ظلت طول عمرها في تجارات تعيش زمناً ثم تختفى . فلما وقعت على النحل — ولا يعلم متى — لم تسقط ان تتخلص من قبضته . وشملها هذا الحيوان الخنثى العجيب ضمن مملكته ، فأدخلها خليته لالغطيتها بقيته المرمرية ، بل بشهرته واسمه .

وسال بعد ذلك نحت مصر ، وذوت صناعاتها ، وجاء يوم تفرق النحل فيه من خلاياه إلى الثقوب وفجوات الشجر ، ثم بلعه الكون وغاب . لم يبق من هذا التاريخ سوى الاسم ، وبعض خلايا من الطين على أسطح قليلة . يرزق منها ومعاشها متوقف عليها ، ببوت قبطية تربى النحل وراثة لا اختياراً عن تلقين لاعن سعى . تجارثهم محاطة بسرهم ككهنة دين هدمت محاريبه في نظر بقية السكان الذين غمرتهم الزراعة في ذلها واستعبادها . فليست تملك كوم النحل — على اتساعها وكثرة سكانها — سوى الأقل من عشر زمامها ، والباقي وقف لسلالة من الشر كس لها قصر خرب في البندر .

من تجار النحل في البلدة المعلم سلامة . رجل يقول عنه المسامون إنه « عضمة زرقه » ، ومع ذلك لا يشعرون إذا جالسوه بأي كره له . لا لأنه بحكم مهنته بعيد عن المساق ومشاجراتها والحدود وخصوماتها ، والمولثى تنزل في البرسيم ، والماء يمر بالقوة ، بل لأنه رغم ما يقال عن شيبته الزرقاء (أيضاً !) لا يكاد يفترق في مظهره ، في أخلاقه وعاداته ، عن بقية المسلمين . اللبس واحد ، والعمامة فوق رأسه عليها المقدار ذاته من التراب . تتحجب امرأته في الطريق كأهل البلد .

هو أرثوذكسى ، يزهو بزيارات القسيس له ، ويأخذ أسرته كلها للكنيسة ، فيجلس هو تحت ، وتجلس امرأته وبنته الصغيرة جميلة فى الشرفة محجبة بالشبشب.. ويبدأ الجميع فى ترتيل صلاة ، بعضهم يقرأها من الكتاب ، وبعضهم لا يحفظ النغمة فهو متردد ، ولكنه يسير بسهولة بعد ذلك عندما ينتظم الجميع ويحملونه معهم ، يقودهم المعلم سلامة ، يحفظ كل الصلوات نغماً وكلاماً ، عن ظهر قلب . صوته أجش غليظ ، يقال عنه إنه كان فى شبابه أحلى أصوات المصلين ، ثم أثلفه الكبر والدخان . وينسى المعلم سلامة نفسه ، ويحنى رأسه على صدره . ثم ينتبه بين حين وآخر لصوت رفيع ، كله تضرع وخشوع ، هو صوت جميلة ، ترث أباهما فى ذوقه الموسيقى ، لا يشعر به أحد ، ولكن أذن الأب تصطاده من وسط التيار .

وفى يوم هبط البلد مبشر بروتستانتى من أسيوط . وقف فى الشارع بعض ، ثم اتصل بالأقلية القليلة التى على مذهبه ، وتوصل منها إلى الاختلاط ببقية الأقباط . فى يده أمانة يلوح بها ويغرى : « فى أسيوط مدرسة للعيال وللبنات مجانية ، قرابة وكتابة ، وشغل الإبرة والمطبخ . إنجليزى من الأصل ، المستر كارتر الأمريكانى والمدمام أليس . مين يقبل ؟ مين عاوز ؟ فيها قسم داخلى ... »

الحب الأبوى وحده هو الذى زحزح المعلم سلامة عن تعصبه ، وأسلم جميلة ، ولم تبلغ العاشرة ، وقلبه يفيض بالأمل أنها فى يوم ما تكون معلمة فى المدرسة التى تدخلها الآن تلميذة .

خرجت جميلة من سجن كوم النحل إلى بحبوحة المدرسة . بعيدة
عن أهلها ، وسط زميلات شياطين ، لاتعطين المعلمة ظهرها حتى
يعلو ضجيجهن كلغو الحمام ، حشوه ضحكات وأصوات غضب كله
دلال . يداعبنها ويلاعبها . يقتلن الوقت في الفسح ، ويتبادلن خلصة
روايات كل سحرها من وهم قارئها .

في نهاية كل سنة تعود جميلة لتشيع من « برام الرز بالحمام » ،
« وتشبرق — يا حبة عيني ! » وهي محرومة في أسبوط .

ويوم يمر ويوم يأتي ، والفتاة النحلية القصيرة ، يتمشى سر
الحياة في جسمها ، فينبت ثدياها ، وتعرف الحجل ، وغض العين ،
وصعوبة النوم . . .

وأتمت جميلة السنة النهائية ، ودعى المعلم سلامة لحفلة توزيع
الشهادات ، فجاء في أحسن ثيابه . كيف يستطيع بعد هذه الفرحة أن
يرفض طلبها البسيط ؟ يصحبها إلى « النخيلة » ، لأنها مشتاقة (قوى
قوى) لحالتها . أسبوع واحد تمضيته هناك ثم تعود لكوم النحل .
- « لكن مش ح سيبك تغيبى هناك . أمك عاوزاك بالحيل .. »

٢

وأخذها إلى « النخيلة » . لا يعرف أن سبب سفرها ليس شوقها
لحالتها ، بل تنفيذا لاتفاق سابق بينها وبين إحدى التلميذات من هذه
البلدة . وعد له حرمة لأنه موثق بيمين . فبين جميلة ومريم « أختي

وحبيبتى طول العمر » ، عهد كله إيمان وغيرة وعتاب . عشق حاد
لا تعرفه سوى مدارس البنات .

عن طريق مريم تعرفت جميلة فى النخيلة بأخيها خليل . بين
الأقباط — داخل المنازل — قدر بسيط من السفور والاختلاط .
هو أكثر الأمر محصور بين الأقرباء .

قد تتمتع القبطية فى الصعيد بالسفور . ، ولكن عدد من يعرفها
فى النهاية قلما يزيد عن الذين يرونها لأول مرة . ولولا تردد مريم
على المنزل واكتسابها لقلب الحالة ، لما تمكنت جميلة أن ترى خليل
أو تجتمع به — فيما بعد — فى خلوة بإحدى الغرف على غفلة من
خالتها .

هو أول شاب تراه جميلة عن قرب ، ولما يمض على اشتعال
جذوة شبابها وقت طويل . وزاده قيمة فى نظرها أنه أخو مريم
« أختى وحبيبتى طول العمر » . خدع نفسها إكبارها للصدايقة ،
فانسقت دون أن تشعر إلى الإعجاب بالأخ . ولكن هذه كلها
ظروف خارجية ما كانت تستطيع أن تتسلط وحدها على قلب جميلة
لولا أن ساعدها شارب صغير — صغير جداً — شعر خفيف ، يزين
شفته . فى حديثه لثغة لا ينساها من يسمعها . خده لم يعرف الموسيقى
إلا من وقت قريب . يحمر ويصفّر إذا تلاقى نظراهما .

كان الحديث بينهما فى أول الأمر صعباً ، غير أنه سهل بعد ذلك
لما قص عليها أنه درس مثلها . (فهو بروتستانتى) فى مدارس

الأمريكان ، وأن فرحه بإتمام دروسه لا يقل عن فرحها ، فهو موعود
بوظيفة مدرس في إحدى مدارس الأقباط بالإسكندرية ، وسيسافر
إليها عن قريب . وأراها قلم الأبنوس الذي فاز به لحصوله على أعلى
درجة في اللغة الانجليزية . هل تتكلمها مثله ؟ وأسرع يقترح عليها ،
كعادة التلاميذ ، أن يتكلما بها ، وهكذا . وتنقل الحديث بينهما
فإذا بعقلية الفتى في مستوى عقلية الفتاة . أغلب ذكرياتهما عن المدرسة
فكاهتهما مستمدة من التلاميذ والمدرسين ومختلف شذوذهم . وأزال
هذا التشابه ما بينهما من كلفة . وشعر خليل ، بعد هذه الجلسة ، بميل
معظمه صبياني نحو جميلة ، وزاد تردده على المنزل متعمداً الانفراد
بها . أمسك يدها . ثم لمس ثديها ، وقبلها . ونسيا نفسيهما في إحدى
هذه الفورات واجتبي منها الشباب جزيته .

لما انتهت السكرة ، لم يستفيقا على منظر مقبض أو قلب ملتاع .
بعد أيام قليلة استدعى لوظيفته بالإسكندرية . وأخبرتها مريم أن
أمنية أمها أن تزوجه في أقرب الفرص . ووعدا خليل أن يعود
بعد شهر واحد لكوم النحل ويخطبها من أبيها . ستبيع أمه عشرة
قراريط تملكها ، ولا يظن أن أباهما يعارض أو يرفض . وكادت
جميلة تقبض على سعادتها .

ظهر أول خلاف بين طبيعتهما عند اقتراب السفر . كانت
تعتقد أن زحمة ترتيب « الشنطة » وتوديع الأقرباء لا يجوز لها أن
تغطي على اهتمام الحبيب بحبيبته . في حين أنه شغلها ضمن هذه المشاغل
لا يدرك إحساسه ان اعتداها بإحداها يتنقصه في نظرها ولا يبرئه .

على أنه استطاع أن يختل بها ، وكرر لها ، وكان صادقاً ،
كل يمين . وجسم لها المستقبل مرة أخرى في صورة سعيدة محققة .
مسألة وقت لا غير . ثم هفا به لسوء حظه طبعه الصبياني ، وطلبها من
جديد وكانت جميلة واثقة من وعوده ، وربما لم تكن أقل منه ميلا
لطلبه ولكنها أثناء نشوتها ، أشرق عليها إدراك أشبه بالإلهام ، أحست
معه بفراغ بارد يدب في قلبها فيطفئ من هيجانه وناره . في الحاح خليل
عليها لتجيبه إلى طلبه وهو على أهبة السفر — دليل مؤكد على
خفته وقصور نظرة عند موطن قدميه . يهس لها وسواسها : لم
العجلة مادام سيعود ؟ أهو صرح عال على رمل ؟ هزة واحدة هدمته
حولها حطاماً . ودهش الفتى المتعب عندما رآها تتشبث برقبتة .
تحوطها بذراعيها ، وتسند رأسها على كتفه ثم تحضنه . تحضنه إلى
صدرها وتهنى كالحمومة :

— خليل ! خليل ! خليل !

لم يتعب خليل في تهادتها . فهي التي استفاقت إلى عبث ما بدا لها
من جديد أنه وهم متسرع . وعاد إليها ، بعد جهد ، اطمئنانها على
مستقبلها ووثوقها بخليل .

وبدأ يتكلمان عن فترة الغياب ، واتفقا على أن يتكاتبا . فأخرج
خليل من جيبه ورقة وقلماً وكتب لها عنوانه بالاسكندرية ،
فهو سيتزل ضيفاً على أحد أقربائه ، أخذتها جميلة وقرأتها . ثم
التفت إليه تبسماً ، وكأنها تعاتبه . مزقت الورقة أمامه :

يستحيل أنساه .. ما تخافش .

ولكن كيف يرد عليها ! أنها ستغادر النخيلة عن قريب .
وفى كوم النحل لا تستطيع أن تستلم خطابات باسمها بدون
علم أبيها . إذن فلتكتب له ، فهذا لا يصعب عليها ، وليصبر هو
لا يرد عليها حتى تعود لبلدها ، وتهديه إلى طريقة تمكنه من مراسلتها .

٣

في مسائه الأخير جاءها ليودعها . قلق السفر يملكه ، فهو
عجل مشرق الوجه لا يستقر على فكرة . لم تصدمه الفتاة بوجه عبوس
أو عيون دامعة ، بل وجدت نفسها تشاركه ، صادقة طيبة النفس ،
بهجته . هل يستطيع أن يحدد لها ميعادا لرجوعه لكوم النحل ؟ بعد
أول مرة يقبض فيها مرتبه من عرق جبينه . لن يغيب أكثر من شهر
واحد . هل سمعت عن فلتس معوض ؟ لا ؟ إنه من أقربائه
البعداء ، وسيتزل لديه مدة إقامته في كوم النحل

ولما هم ينصرف أمسك خليل بيديها ووضعهما على كتفيه ،
ثم طوق خصرها . عيناها في عينيه . السعادة التي تغمره صفت
طبيعته من التصنع والالتفات للنفس ، ولذلك نفلت نظرتة إلى
قلبها وطوى شعوره شعورها .

« أحلف لك بإيه إني مش ح أخونك في الاسكندرية . إوع
تفتكرى .

_ أنا بقيت في إيدك .. اعمل في اللي تعمله .

لأنتي خايقة ؟

لا بس مش عارفه ح أصبر ازاي .

كل ما تفتكري في اكتبى لى جواب . بس جوابات طويلة
مليانة . عايزك تكتبى لى كل يوم ولو حته ، وأنا تو ما ح تبعيتلى
عنوان ح اكتب لك على كل حاجة » .

وجلس واجلسها على ركبتيه . قبلها على عنقها وعينيها وبين
صفائرها . ثم توالى قبلاته حارة هوجاء هنا وهناك .. لا يدريان
كم من الوقت مر عليها . ولا كيف انتهى هذه القبلات .
حركة رجل وصوت باب ، قطعاً عليها الخلوة . وقام خليل ..
آخر ما رآته منه وجهه يديره لها وهو يخرج . وجهه طفل سعيد فرح .
بعد يومين كتبت له من النخيلة جوابها الأول .

٤

أقضت النخيلة فأرسلت لأبيها أن يأتى ويأخذها .. وعادت لكوم
النحل معها حقيبتها « برانيطو كتب » : أعجوبتان في منازل الطين
والقش ..

وتوالى على جميلة زيارات أقاربها وجيرانها ، لا تجد وقتاً
تفكر فيه كيف تدبر طريقة يرسلها بها خليل .. وكتبت له
جوابين تخبره بأمرها ، وتطلب إليه أن يصبر قليلاً .

وبعد أيام كانت فى مجلس كله فتيات من سنّها ، ينصتن لفتاة
تفضى لهن بمخاوف هى على كل حال للذبة ، بدليل ما فى وجوه
المستمعات من تطلع و عيونهن من بريق . دخلتها بعد يومين ، وهى
لا تدرى شيئاً من أمر أول ليلة مع زوجها . ماذا سيحل بها ، هى
خائفة مضطربة . توالى عليها ردود كلها عن سماع أو اجتهاد .
وكانت حجتهن جميعاً واستنادهن الوحيد (أم أحمد هى اللى قالت) .
هو اسم لا تجهله جميلة ، وإن لم تر صاحبه من قبل . لا تعرف عنها
الكثير .. ولكنها لم تقم من المجلس حتى علمت كل أخبارها .

هى امرأة تزوجت أربع مرات . فارقها كل زوج بطلاق
بعد عشرة قصيرة . وتسنى لها بفضل هذه المجموعة أن تشتري بما
جمعت من متأخر المهور فداناً ونصف بجاموسة . هى ما شطة
« بلانة » فى الأفراح ، حادية بالغناء عند طلوع الحجاج ، والمقدسين !
— أوردجوعهم . داية إن استغاث بها جار قريب ، تعرف وصحات ،
وتفسر الأحلام وتحسب النجم تفوح منها دائماً رائحة الماورد ، كل
مناسبة اجتماعية تكون فيها أم أحمد بلا دعوة .. إلا فى المآتم ، فهى
لا تطيقها . ولعل ذلك لأنها لم تخلف من زواجها المتوالى ، ولم تفجع ،
كمعظم المتطوعات باللطم و « الصوات » ، فى ولد عزيز ..

إذا قابلت فتاة كلمتها رأساً ، ولو كانت تعرفها لأول مرة ،
عن جسمها وثوبها وشعرها وبهامها . وإن كانت امرأة سألتها
عن زوجها وعاداته ونوبات مرضه وهجرانه .. كم فى كوم النحل

من رجال يجهلون أن زوجاتهم تلقين عن أم أحمد نصائح أشبه بالدروس . فمعظم النساء يعرفنها ، ولكن القليل منهن من تعلم أن أم أحمد قد تمثل في بعض الأحيان - عندما تكون « رايقة » - مع التلميذة نصائحها ، لتكون دروسها عملية أقرب للفهم ، وأن هذه الدروس هي سبب اطمئنان فتيات كثيرات في لياليهن الأولى مع أزواجهن ، أو ارتفاع قيمة زوجات في نظر رجالهن بعد هبوط وإعراض استطاعت جميلة أن تتصل بأم أحمد . ورغم سمعة هذه المرأة - أو ربما بسببها - شعرت بوثوق شديد بها .

أفضت لها بقصتها ، وإن كتمت عنها زلتها ، وبثتها حيرتها في شأن الجوابات ، فكانت أم أحمد هي التي اقترحت عليها أن يكتب لها خليل على عنوانها هي .. ستحفظ الرد من « جوه حبابي عيني .. » وتوصله لها .

وعلم خليل بالعنوان .. واستلمت جميلة جوابه الأول كاللقية .. فقليل من الناس من يستطيع أن يكتب خمسة جوابات قبل أن يصله الرد الأول .

ليس يصعب عليها أن تكتب الجواب بقلم كويبا خفية في منزلها . أحياناً تعطى الجواب لأم أحمد ، وهي التي توصله للبريد ، وأحياناً تكلف به أحد صبيان الحارة على ظن أنه من المنزل وبعلم أبيها .. وهذا لأن مكتب البريد في السوق أمامه دكاكين ، وأناس

جالسون أقوياء العيون ، وهى تخشى أن يعرفها أحد ، فيتصل بعلم أبيها خبر ترددها على المكتب وينفصح سرها .

فى أول الأمر اقتصر حديث خليل على حياته المدرسية وعلاقته بالتلاميذ ، وتعبه من الدروس ، ثم بشرها فى خطاب تال أن ناظر المدرسة مسرور من اجتهاده ومواظبته ، وأنه أوصى بمنحه علاوة وبترقيته .. وأنهم لذلك اختاروه لوظيفة نخلت بمدارس القاهرة ، وسيسافر إليها عن قريب .. أليس هذا من بركاتها عليه ؟

لم يمض وقت طويل حتى وجاءها خطابها من القاهرة . هو فى وظيفته الجديدة منذ يومين . ما أتعب النقل وزحمة السفر ! ولكنه مسرور . وطلب منها أن تراسله منذ اليوم على شباك بريد الفجالة لأنه يستطيع أن يمر هناك كل يوم ويستلم خطاباتها أولا بأول . وانتظمت المراسلة بينهما .

الفصل الرابع . فرحة ماتمت

١

وفي خليل بوعده ، وجاء بعد شهرين لكوم النحل ، ونزل
لدى قريبه فلتس معوض . يظلم هذا الشاب من يثمه بأنه غشاش
أو مخادع . كل ما في الأمر أنه قليل التجربة ، يقدم بسداجة على
أدق المواقف ، جاهلا بما في شعائر الحياة من صلابة . فقد جاء لكوم
النحل مفلس اليدين ، لأن أمه لم تبع الطين . لا يدرى بالضبط إلى
أى مدى يكون مسعاه . كل ما أخبر به أمه أنه سيخطب جميلة .
يخطبها فقط من أبيها .

وقابل خليل مع قريبه فلتس المعلم سلامة ، وفاتحه برغبته في
الزواج من جميلة . فارقهما الأب وهو فاهم أن المسألة خطوبة فقط ،

لأنه ينتظر أن يكون مع الشاب أمه أو أحد أعمامه . ولكنه عندما أخير زوجته الخبير ، سهلت عليه أن يتم الزواج كله مرة واحدة. يجوز أن تكون أم العريس مريضة أو عجوزا لا تتحرك ويتلف أمل البنت. ثم ما داعى الانتظار ؟ وكانت جميلة بعاطفة نصفها محبة ونصفها استبداد فقد ضمت أمها إلى صفها بل كانت تحركها طوع وإرادتها .

في الجلسة الثانية لم يشعر خليل أنه ينساق إلى التكلم في الإكليل وتاريخه . ثم وقفت المفاوضة مرة أخرى. عندما فهم المعلم سلامة أن خليل لم يأت بالمهر . مرة أخرى زالت هذه المشكلة في منزله.. وقبل بلحاح زوجته أن يعقد الإكليل ، على ألا تسافر جميلة للقاهرة إلا بعد دفع المهر، فهو لن يخسر شيئا الآن. ولن يبدأ في شراء الجهاز— من ملابس وصيغ— إلا عند قبض النقود .

وتحركت المساعي من جديد .. وقابل الجميع القسيس ، فإذا هو ماء بارد يصب بلا رحمة على نار عجلتهم.. العريس بروتستانتي والعروسة أرثوذكسية .. فلا بد من أن يكتب لمصر ليستأذن هل جاء بشهادة من كنيسة بالنخيلة أنه غير متزوج ؟ إلخ إلخ . شروط شكلية ، ولكنها تستلزم وقتاً . وخليل في إجازة قصيرة قاربت الانتهاء . إذن يعود مرة أخرى. لم يستطع أن يختل بجميلة قبل سفره . لم تأس على ما فاتها، فأمامها المراسلة بينها ، سيتفاهان بها من جديد ، وستبث الورق كل ما كانت تود أن تقوله .

ولما انتهت هذه الجولة بسفر خليل ، أحس المعلم سلامة أنه
يستيقظ من حلم . أين هو وقت أن كان يساق إلى كل هذه
التسهيلات لأجل هذا الفتى الغريب عنه ؟ وحمد الله في سره أن
المسألة لم تم ، يلزمها أولاً تكملة ما في شكلها الخارجى من نقص
يلحظه الناس . على الأقل تأتي أمه ليرى وجهها ، أو يقدم لها خاتماً .
ثم هو يريد أن يسأل بعض معارفه في القاهرة عن حقيقة مرتبه ،
وعن مركزه في المدرسة . ولودرى المعلم سلامة أن في بطن ابنته
جنيماً ينمو يوماً بعد يوم ، كمعقرب الساعة لا ترى العين حركته ،
وهو دائب السير لمصير محتوم ، لما حمد الله كما فعل ، ولأكل
الهم قلبه .

٢

ليال لا تنامها من الفرح ، تتلوها ليال من الكرب . كانت
قد ألهبت عواطفها بالسياط ، وعلقت كل آمالها على مجىء خليل ،
فخانها حظها الأغبر . لا تجد أصعب على النفس من الفرصة تملكها اليد ،
ثم تنساب من خلال الأصابع كالماء . لم تكن في إشباع شهوة أو
تحقيق حلم ، بل في انقاذ شرف . ولماذا لا نقول انقاذ روح ؟
فمن يلزمها أن حنان هذا الأب قد ينقلب فجأة إلى قسوة لا تلين ؟
أصابعه التي تجوس خلال شعرها قد تتصلب في خيانة مباغته وتطبق
على حلقها . جميلة ! أنت ! التي كنت أعزها ولا أرد لها طلباً ،
تفضحين شيبتي . تضعين ذقنى في الوحل ، واسمى في أفواه الناس

يَمْضَغُونَهُ عَلَى مَهْل ، كَأَنَّهُ الْعَلَكُ اللَّذِيذُ ، عَلَى مَهْلٍ مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَا .
يَتَبَادَلُونَهُ كَأَنَّهُ الْهَدَايَا ، وَيُثِيرُونَهُ عِنْدَمَا يَمْلُونِ الْحَدِيثَ .

لِمَنْ تَشْتَكِي ؟ فَتَاةٌ لَا تَعْرِفُ مِنَ الْمَآزِقِ وَالْمَخَاطِرِ شَيْئًا ، تَرَى
نَفْسَهَا أَمَامَ مُشْكَلَةٍ لَيْسَتْ فِي الْحَيَاةِ مِثْلَهَا . هِيَ عَقْدَةٌ كُلُّهَا اصْطِلْدَامٌ
وَنَزَاعٌ ، وَخِيُوطُهَا مِنْ دِيَانَةٍ وَتَقَالِيدٍ وَوَهْمٍ ، مُوشِجَةٌ بِحُكْمِ الدَّمِ
وَالْجَسَمِ . وَسِرُّ الْحَيَاةِ لَا يَهْمُهُ مَاذَا يَعْتَقِدُ النَّاسُ . لَا رَحْمَةً فِيهَا .
جَبَرُوتُهَا قَلَمًا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَثُورَ عَلَيْهِ رَجُلٌ يَعِيشُ فِي وَسْطِ الصَّعِيدِ
وَبِعَقْلِيَّةٍ يَرِثُهَا عَنْ أَجْيَالٍ لَا تَتَسَامَحُ وَلَا تَلِينُ .

اصْفَرَّتْ جَمِيلَةٌ وَتَاهَتْ نَظَرُهَا ، وَتَعَلَّمَتْ أَنْ تَحْتَضِنَ الْوَسَادَةَ
بِذِرَاعِهَا ، وَأَنْ تَسْرَحَ لَا أَنْ تَنَامَ . تَتَقَلَّبُ عَلَى الْجَنْبَيْنِ . هَلْ مِنْ
مَخْرَجٍ ؟ لَيْسَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَ خَلِيلٌ مِنْ جَدِيدٍ .
وَعَادَتِ لِحَطَابَاتِهَا ، فَهِيَ كُلُّ مَا بَقِيَ لَهَا . تَنْفَخُ فِي رُوحِ أَمَلِهَا ،
وَتَسْتَحِثُّ خَلِيلًا عَلَى الْحُبِّ .

٣

فِي هَذَا الْوَقْتِ بَدَأَ عَبَّاسٌ يَفْتَحُ الْجَوَابَاتِ . لَمْ يَفْهَمْ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ
أَنَّ جَمِيلَةً قَدْ دَخَلَتْ فِي دَوْرِ الْأُمُومَةِ . فَهِيَ بَعْدَ أَنْ أَخْبَرَتْ خَلِيلَ
بَسْرَهَا فِي خُطَابِ سَابِقٍ لَمْ تَعُدْ إِلَى ذِكْرِهِ . تَشَاوَمَهَا وَخَجَلَهَا يَثْنِيَانَهَا .
تَحْتَمِلُ عَارَهَا فِكْرَةً ، وَلَا تَطْلِقُهُ عَلَى الْوَرَقِ مَخْلُوقًا مِنْ صَنْعِ يَدَيْهَا
مَكْشُوفِ الْوَجْهِ ، بِشَعًا يَحْمَلِقُ فِيهَا . وَاكْتَفَتْ أَنَّهَا فِي كُلِّ خُطَابٍ
تَنَادِيهِ ، وَهُوَ فَاهِمٌ .

وظل عباس جاهلاً سرها وإن كان في دخليته إدراك مبهم بأن هذه الخطابات تحوى شيئاً من النقص والتناقض . فكان ما بها من تشبث بعيد عن الارتواء ، وعاطفة لا يضعفها التكرار ، ولا يطفئها صقيع تيار يخلفه الزمن في جريه قد جعل عباس يراها وهو مأخوذ بها في صورة معوجة ، تزيد من إعجابه ، بقدر ما تمد في ظنونه . ولكنها - كلوحة السينما - تدلس الفرع بمنظر أبت ، وترد منطقته عندما تكشف عن أساسه - أدرك ما كان غائباً عنه عندما وجدها في خطاب غريب تنفجر بمرارة . مسكينة ! تقول له لماذا لم يأت ؟ هل نسي ما أخبرته به ! أم لم يفهم ؟ لعله في فسحة يضحك ويتسلى بين أصدقائه يطارحهم النكات . فهل فكر فيها ؟ تجاوزت شهرها السادس وأصبح منظرها مفضوحاً . منذ أيام وهي تدعى المرض حتى لا يراها أبوها . جاءها القسيس وبارك وصلى . وجه أمها مسود كسيف ، لعله هو الذى ينم عليها . لا يزال في الأمر مخرج . لو جاء ! لو جاء وعقد عليها وأخذها معه . بعيداً بعيداً عن هذا الأب وهذا المنزل . لتعيش طول عمرها خادمة تمسح حذاءه ، ليضربها كل يوم ، ليعطها عيشاً حافاً كالكلاب .

« لما قرئت الجواب حسيت لأول مرة إن المسألة مش هزار ولا لعب عيال . أثارها حاجة خطيرة ومحنة وأنا مش دارى . افكرت جواباتها كلها وفهمت . وقتها بس فهمت . أقول لك الحق قلبى وجعنى علشان البنت دى . طول الليل وأنا أفكر فيها .

لو كنت في مصر يمكن ما كنتش أترعب علشانها . لكن هنا في
في كوم النحل حاجة مخوفاني . حتى الهوا اللي الواحد يقنفسه يكتم
الصدر ويخنق الواحد . ما فيش رحمة ، كل أمل حطيته في الرد
الى ح يجي . ما ليش صبر أستنى . أنا باللي ماليش دعوة ولا حاجة
تمسنى ، أmaal هي بتعمل إيه ؟ »

بعد أربعة أيام جاء الرد . لم يستطع عباس أن يصبر حتى يأخذه
معه إلى منزله ويقرأه في خلوة ، بل فتحه في المكتب وبقيّة الخطابات
أمامه لم يفرزها بعد . وقرأ :
« عزيزتى ونور عيني

علم الله أننى ما تأخرت في الكتابة إليك إلا لأننى كنت مشغولا
ومشغولا جدا ، وأنا يا عزيزتى لم أرد إخبارك من قبل بسوء الظاهر
الذى وقع بينى وبين ناظر المدرسة حتى لا تتكدرى من أجلى .
كل الحنافة على درس خصوصى والسبب في التوقيع شخص كنت
أعده صديقتى كما قال الشاعر :

احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة

وتصورى يا عزيزتى أن الناظر أراد أن يؤذيني ، وسمعت
من الباشفراش أنه شرع في كتابة تقرير ضلّى ، حتى أصبحت
أترحم على أيام الإسكندرية ، وحتى يشت من حظى ، وقلت لإرادى
الرب . ولكن محبة إلها نخلت ناس من حيث لا أعرف يتوسطوا

وأخيراً قرروا إعادتي للإسكندرية وهذا آخر جواب أكتبه لك من مصر ، لأنى مسافر اليوم بقطار المفتخر . فأرجوك يا عزيزتى أن تكتبى لى من الآن فصاعداً على عنوانى القديم هناك . عزيزتى أظن فهمتى الآن لماذا تأخرت فى الرد ، ولماذا يستحيل على السفر إليك . لولا المشاكل التى شرحتها لك ، لكنت كلمتهم فى إجازة قصيرة بحق وتحقيق ولكنى زى ماشفتى ما فىش فى إيدى حيلة . ولكن لا تخافى المسألة ملحوقة . استفهمت من ناس قالوا لى على أدوية كثيرة ووصفات ، فأخبرينى أبعث لك بدوا ينفعك . وهذا فقط حتى تأتى إجازة الصيف وأحضر لك .

عزيزتى — أخبرك أن أختى مريم ستحضر طرفى للفسحة بالإسكندرية ، وأمى فاضلة لوحدها رجلها بتوجعها ، ومش عاوزه تسافر .

عزيزتى — عندى كلام كثير مخليه لما أروق فى الإسكندرية أكتبه لك من هناك .
ألف قبلة من المخلص إليك دائماً .

« خليل »

« شفتش بواخة أكثر من كده ؟ هو دا جواب يكتبه المغفل دا . زى لى أنا حاسس بقلب البنت لما تقراه ... سكاكين تقطع فيه ! ! »

الفصل الخامس سقطه البوسطجى

حطيت الجواب على جنب فوق الطرابيزة عبال ما اخلص من
من الشغل واقفله على مهلى . قلت فى نفسى أصلا ما هواش مستعجل
قد كده . ويمكن يبنى ثواب منى لو أخرته عن البنس المسكينة شوية .
ومسكت فى الشغل زى العادة كل يوم .

ملأ الختامة حبراً جديداً . وأصلح تاريخ الختم المستدير ،
ثم جاء بالخطابات وربها كلها على ظهرها كوماً واحداً ، ثم بدأ
يختمها فى حركة آلية سريعة متكررة . مرة على الختامة ومرة على
الجواب . خبطة مكتومة ، وراءها رنة خشب . هذا الصوت الذى
يألفه كل من يعيش بمكاتب البريد أو يمر بها . هو شهيقها وزفيرها
وهى تلهث فى عجلتها .

لسوء حظ عباس دخل عليه فى هذا الوقت شيخ الخفر . هو رسول
العمدة يسأله متى يخرج من البيت . هب فيه عباس وهو محتقن الوجه
هائج . ختم البريد فى يده يرتعش . ما هذه « الخوطة » ؟ كل يوم :
البيت ، البيت البيت . يكفيه وجع دماغ . إنه لا ينادى طرشاً ولا
يتكلم بالسريانى . هو باق لا يتحرك لوعيد ولا لرجاء . إنه ليس
بطفل يهزل . وحتى يعتقد العمدة ويريح نفسه ، ها هو هذه المرة
يقسم بالله ثلاثاً أنه لن يخرج من الدار . والله العظيم وبالله الكريم .
نسى أن الختم لا يزال فى قبضته . ولم يهتم فى حديثه أين تقع
ضربة الختم . وخائنه يده فهوت بالختم على جواب خليل المفتوح
وقبل أن يعى عباس لنفسه كان قد انطبع تحت إمضاء خليل ختم
(كوم النحل - وارد) فى استدارة أم خمسة ، تلمع الحروف والأرقام
حبر زفر ملعون .

وقف أمام خطئه ذاهلاً تركبه الأوهام . لو حاول أن يمسه
لحرق الورق ، وكأنه جاء يكحلها فأعماها . ولو أقفله وسلمه لأم
أحمد ، فلا بد أن تكتشف جميلة سره وتتصل بخليل فيشتكيه
من يدري ؟ وربما قدم الخطاب دليلاً ضده فيكون جزاؤه الرفق
مؤكداً .

« بقيت بين نارين . إن سلمت الجواب انفضحت . وإن قطعت
ولا حرقته تفضل جميلة تهري وتنتكت مستنية الرد والذنب ذنبى أنا .
لكن قلت فى عقل بالى : ياما جوابات بتضيع فى البوسطة . لو

ما رحلهاش بالمرّة يكون أحسن ، والمسئولية تبقى متوزعة بيني وبين العموم في مصر . والجوابات العادية دى ما عليهاش كنترول . وغايته لما يشوف خليل أن جميلة اتأخرت عليه في الرد يكتب لها تاني من الإسكندرية ، وح تفهم أنه راح هناك ، وتكتب له العنوان اللي عارفاه . إيه العنوان دا أنا ما أعرفش ، هي لازم كتبت له عليه كام مرة وحافضاه كويس .

واحتفظ عباس بالجواب . جاءته أم أحمد فhez لها رأسه . عادت بعد الظهر « مع الأسف ما فيش » في الصبح مرة أخرى : « لسه ما جاش » : بعد الظهر . « ما كفش ينز » تاني يوم : « النهاردة الحد ما فيش بوسطة » يوم الاثنين : « يمكن العصر » في العصر : « يمكن في الصبح يجي » . كل هذا والجواب مطبق بظرفه في جيبه .

« عاوز أكلمها وأفهمها . أقول لها خليل راح الإسكندرية . لكن مش قادر . ما تعرفشى أنا في الأيام دى كنت متعذب قد إيه . ولسه اللي جاي ألين وألين » .

في اليوم الخامس جاءه الخطاب الذي كان ينتظره بلهفة ، خليل كتب من جديد من الإسكندرية . لم يفتحه . ونوى أن يسلمه إلى أم أحمد لحظة أن يراها فيكني ما سببه من تأخير . ولكن أم أحمد لم تأت . انتظرها إلى العصر فلم تظهر . بعد التشطيب وضع الجواب في جيبه وسار إلى مسكها . لم يقترب من رأس الحارة حتى رأى

النسوة حول المنزل كرش الملح . كلهن « مبشقات » . دق قلبه
وكذب وسواسه . وسأل فأجيب :

أم أحمد تعيش انت .

وعلا حواليه صراخ النائحات ، ونخيل إليه وهو مشئت الدهن
أن كل هذا الجمع الأسود كسرب من غربان الشؤم ، يصوت عليه
وعلى مصييته الثقيلة ونخته المائل .

« وقفت مذهول . طب مانت مانت . مرة كركوبة في داهية
لكن الجواب اللى في جيبى أعمل فيه إيه ؟ الغلطة بتاعى بدل ما تتصلح
انهيت زيادة . ح اضطر أرجع الجواب للعموم وأقول عليه :
(المرسل إليه متوفى) . لو كنت ما بوظلش الجواب الأولانى كانت
جميلة عرفت مطرح خليل وكتبت له على عنوان جديد بعد موت
أم أحمد . واتفقت وياه على حاجة . جيت أنا بسلامتى وقطعت الخيط
الى بين الإثنين . والمصيبة أن الغلطة دى ما تحصلش إلا والبنت في
كرب . تقريباً بتستغيث . ح تقول عليه إيه ؟ لا زم ح تفهم إنه
ييهرب منها والجدع مظلوم . ويمكن كان يحى لو كتبت له مرة
ثانية . مين يعرف ؟ وأرجع أقول بتفلقوا الكل سوا أنا عاوز أخلص
نفسى وبس . حرمت اللعب في جرابات العيال دول توما يكتبوا
لبعض من جديد . لكن ازاي ؟ ازاي أتوصل لحيلة ؟ ما يمكنش في
بلد زى دى تشمم على بنت أو تسأل . وتسأل مين ؟ دانا غريب
وعازب . وبفرض عرفتها ، أكلها ازاي ؟ مشيت مش حاسس

بنفسى . أبص للبنات الى فايقين . ياترى ما تكونش دى جميلة ؟
ولا دى ؟ يمكن دى ؟ قايست وحاجة خلتنى هجعت على أول واحدة :
— جميلة ؟

هربت منى ! والثانية :

— ما تعرفيش جميلة ؟

خافت وجريت ! والثالثة دورت وشها للحيط ، ووطت .
شوية شوية ح تقعدع الأرض وح تعيط :

أظن دلوقتى ح تضحك لما تفتكر بلاغ العمدة الأولانى ضلى .
وازاى انتهز الفرصة دى واشتكانى . أنا كذبت عليك وقتها .
ولما سيبتك كنت عيان صحيح . ما اقدرش أقوم من السرير . جات
لى حى بقيت أهلوس يمكن جمعة .

فى الوقت ده جه للمكتب بدل من أسيوط واستلم الشغل .
لازم جميلة كتبت مدة غيابة لخليل على عنوانه بالفجالة تتعجله وتقول
له على موت أم أحمد والغالب — زى ما قلت لك — أنها فهمته على
عنوان جديد يكتب لها عليه . دا كله علشان لما قمت من العيا
واستلمت الشغل تانى ، لقيت جواب منها على عنوان الفجالة . جواب
قصير تقول له إنها مستنية الرد بسرعة . وضرورى يجي قوام ،
وطبعاً ما كانش فيه مناسبة تجيب له تانى سيرة . عنوانها الجديد لهاية
دلوقتى ما عرفتوش ولا اقدرش اضمن يكون هو ايه . لكن خليل
عمل ايه ؟ لازم فضل هو رايح بيعت فى جوابات على عنوان أم أحمد

ولا حذر يأخذها .. علشان أناكد كلمت البديل ، وعملت حجتي إنه
جديد في البلد ولا يعرفش حد ، وسألته :
— عندكش جوابات لسه ما وزعتهاش ؟

— فيه جوابين ثلاثة . لكن ما تخافشي . أنا روقت لك الشغل
تمام . حتى واحدة أظن اسمها أم أحمد كان لها جوابين رجعتهم
للعموم ، علشان ناس قالوا لي إنها ماتت .

بعد كده جه جواب تاني من خليل . فتجته . إيه الحكاية ؟
ما بتردش عليه ليه ؟ هو زعلان من زعلها . ما لهاش حق تزعل
ما دام فهمها علره . وجواب تاني بعد ده بعشرة أيام تقريباً .
لسه زعلانة ؟ إذا كان فيه حاجة مزعلها لازم تقولها له . وهوبس
ح يكتب لها جوابات على فشوش وحاجة زي دي ! وبعد كده سكنت
خرس . ولا جواب تاني جه منه بعد كده .

الجوابات دي كلها بقيت أخذها . ما أرجعهاش للعموم .
وليه الفائدة ! وكنت باعمل كده في جوابات جميلة . كل يومين
والتاني يترمي في الصنلوق جواب منها . جوابتها رنخرة اللي راحت
مدة غيابي ع الفجالة ، طبعاً لسه ملامحة في الشباك هناك . ما حذر
بياخذهم .

وتاهت نظرة عباس وتصلب وجهه ، وسمرت عيناه على مرمي
بعيد . ليس في وجهه أثر للروح الخفيفة المرتعبة الهاشجة . تمثال
من البرونز ، يقصد صانعه إبراز قسوة اللحم ، وصلابة خطوط

الحسين ، والحسن البارز من أثر المجهود . تتبعه حسنى بنظرته ، وهو
يعجب كيف تنقلب الطبيعة فجأة . هل يكون هذا علامة على
أن عباس مشرف على مرض آخر ؟ أعاده للحياة بسؤاله .
— وجميلة ؟

عاد عباس لحديثه أهلاً صوته وأخفت نغمة :

— « جميلة ؟ يمكن بعثته له ٢٠ جواب . كل يومين ، وفي
الآخر كل يوم . ما عرفتش مين اللى بيحبهم للبوسطة . كنت دائماً
الاقبهم الصبح لازم حد بيرميهم قبل ما أحضر للمكتب . فى الأول
سألته : ليه ما بيردش عليها ؟ هى مش عاوزة منه حاجة ، بس
يفهمها ليه سبب سكوتة . »

ثم أخذ كل خطاب يقصر عما قبله . كالنار تنطفىء وتطأطأ
رأسها على مهل . حالتها سيئة ، ومصيبتها كبيرة ، ولكنها واثقة فيه
لا يفارقها اعتقادها أن كرهها إلى فرج ، فمإذا جنت هى فى حياتها ؟
لا تذكر أنها صلت بقلب بارد ، أو أذنبت فى حق الشاب . يارب
لماذا ؟ من وسط آلاف الفتيات يختارها القدر ليلدبقها المر ؟ من أسابيع
وهى لا تخرج من البيت حتى ذوى لونها ، وأمسكت عن الأكل إلا
ما يدفعها إليه جوعها .

وساعد جميلة على الهرب من نظر أبيها أنه قلما يأتى لمنزله إلا
لينا . تجارته تشغل وقته وتضطره إلى السفر لأسيوط . فى المرة
الأخيرة عاد مع الليل بعد غياب غر قصير ، ودخل وفى حضنة
بطيخة .

— جميلة ! فأجابته أمها :

— البنت عيانة شوية . سيبها .

جواب واحد لا يتغير منذ زمن . سار المعلم سلامة إلى ابنته .
لما رآته — وهى فى فراشها — نهضت واقفة . الغرفة معتمة والنور
ضئيل . اقترب الرجل من ابنته ووضع يده على رأسها ، وسقطت
نظرتة على جسمها . ورفع وجهه ، فإذا به قد شاخ فى اللحظة الضئيلة
سين . هو « العضة » الزرقاء حقاً . وجهه فى لون رمادى منطوى
ذقنه معفرة وشفته « منيلة » . فى عيونه لمعان أصفر ، وكأن رأسه
صغرت فجأة ، فالعمامة تنزلق ، وهى ثقيلة الدم ، فتقضم نصف
أذنيه ، وأدار وجهه لينادى زوجته ، فانفلتت جميلة وعادت إلى
فراشها نظرة أخرى ثم خرج .

ونسى المعلم سلامة عشاءه ، وفضلت البطيخة صحيحة .

« رجعت جميلة كتبت لخليل جواب طويل . لازم أبوها مش
ح يسكت بعد كده . خايفه منه . خلاص ما لهاش أمل . ثلاث
أربع أيام ما خرجش من البيت . ينفخ ويتهد . كل ما تحس برجله
جاية ناحيتها قلبها يقف . لو يحى خليل ولو يوم واحد ، كل شىء
ينتهى . فين هو ؟ فى عرضه . فى طوله . تبوس رجله . يعمل فيها
معروف » .

مضت ليال لم يغمض لها فيها جفن ، تنصت لوقع الأقدام وتظن
الظنون . على أى شكل ستلقى حتفها ؟ أينختار حبلا أم سكيناً ، مخدة

مبللة أم سماً نقيعاً ؟ ونسيت جميلة خليلاً وصيته وكذبه وخيائته ،
واقترص اهتمامها على حياتها . لو تستطيع أن تهرب من الدار لنجت .
ولكن أين السبيل وهي محبوسة ؟

« كتبت له الدور دا يا يلحقها يا يلحقهاش .. لو ما نت مقتولة...
يكون موتها علشانه . يبقى ما ينسهاش .. ويفتكرك في تربتها ..

آخر جواب كان بتاع النهارده . وأنا رايح المحطة الصبح فتحته
وقربتة ، كلمتين اتنين بس .

« خليل .. الحقنى ! »

عمرى ما شفت واحد يطلع في الروح . ولا شفت ميت .
الكلمتين دول نخلو جسمى يقشعر .. تعرف الحروف لما يشخر
ويرفص وقت ما يندبح .. والفرخة لما تيجرى ورقبتها مقصوفة ..
كل ده مش حاجة جنب الكلمتين دول .. الجواب ده مسكته
وقطعته .. الباقي اللي في الشنطة زى الرصد قدامى .. هما ح يكونوا
أهم من جواباتها اللي ضاعت طظ ! ينفلقوا أصحابهم ويروحوا
في داهية إذا كانوا عاوزين .. جوابات سمجة سخيفة دمها بارد ..
رحت نازل عليهم وهات ياتقطيع .. تقولش ساعتها إني باقطع في
هدوم واحد بخانقه .. بغل .. وبعدين ما حسنتى بنفسى .. دخت
ورحت في دنيا غير الدنيا .. اللي غايظنى ساعتها ان الدنيا دي حاجة
سخيفة .. إتهيا لي أنها طرشة . تفضل معها صرخت فيها ماشية زى العادة
ما فيش حاجة تقدر توقفها .. ليه زى الطرشة ؟ علشان عمرها ما تبص

وراها .. البنت المسكينة دى داستها وفاتت عليها . أنا لغاية دلوقتى
ما اعرفش جرى لها إيه .. أكثر من كده . عمرى ما شفتها ! لكنى
أنا متأكد أن البنت دى ما تت غدر .. والسبب أنا .. ما فيش حد قتل
البنت دى غيرى أنا . .. أنا .. ،

وسكت عباس فخلا حسنى لنفسه . هو كالمتمرجح فى السرك
تهزه مخاطرة اللاعب ، وإن لم يفته اليقين أنها ككل ليلة -
تنتهى بسلام . بيد أن عاطفته جعلته لا يتخلف عن عباس فى قصته ،
يسايره فكرة فكرة ، فاهماً دواعيه . مقدراً أحزانه وهمومه ،
ويشاركه الندم ، ويرثى له كيف هوى حظه وخائنه يده ؟ ويعتقد
كما يعتقد عباس أنه اغتال هذه الفتاة بهفوته ، ولكن حسنى يعلم أيضاً
أنه يستطيع بمجهود صغير أن يغير من نظرة عباس لماضيه ، ويعيد
إلى هذا المريض ثقته بنفسه ... ولكنه وهو الخبير المحرب
لن يقصد إلى غرضه بمحاولته التقليل من حدته وهياجه ، أو بأن يفتح
له عينيه ليريه مبالغته الظاهرة وتهويله . فهو يعلم أنه لو فعل ذلك ،
لما زاد شعور عباس إلا التواء ، وانكمش فى نفسه يأكلها بأساً
وندماً .. فخير ما يفعله معالج الأعصاب ، أن يؤمن بقول المريض
لا حيلة ، بل اعتقاداً .
التفت إليه حسنى وهو يتسم :

« ومن اللى فى الدنيا دى كلها مشول ؟ »

وسكت فجأة ، كأن بدأ وضعت على فمه . جملة بتصيدها

ليستخدمها وهو بعيد عنها ، فلما خلقتها لسانه ركبته فهوى تحت
ثقلها . . كصدمة ممثل بغياء عند ما يستفيق على أن دوره
يلبسه . .

عادت الحياة لوجه عباس وإقتراب إلى حافة فراشه ا
« طب قول لى أعمل إيه ؟ أحكى لهم فى التحقيق ع الحكاية ؟
ولا أسكت ؟ »

- أحسن شىء ، تكفى ع الخبر ما جور .. »

ترك عباس فراشه ، وسحب من تحت سريره حقيبة اسنارت
أركانها ، ومد يده يزيح أكواماً من تياب مبعثرة ، ثم أخرج
من تحتها رزمة رماها على المائدة : « آدى الجوابات كلها .. أحسن
شىء تاخذهم أنت .. أنا مش قادر أقطعهم .. ويمكن يلاقوها
عندى .. »

جمعها حسنى بين يديه .. رزمة نحيفة من ورق رخيص ...
وساد فى الغرفة صمت ، جفون حسنى لا تستقر ، وانتبه الرجلان
على صوت جرس الكنيسة الصغيرة يلقى إشعاراً بموت .. يكاد ينطق ،
فقد عبر النحاس فى بعض الأحيان عن منتهى حزن الإنسان وألمه ..

قصة في سجن

أزال الواجب المتكرر شعور الشاويش وهويـزج بالمقبوض عليهم إلى غرفة السجن . ولكنه مع هذا الرجل متفـسـجـر ، ملتوى القـم ، قاسى القبضـة ، يتلذذ بـشـتـمـه وضربه بالكف على قفاه .. لا لأن عينيه تقع على ساقين غشاها القشف ، أو لأن أنفه زكمه رائحة كريهة تنبعث من جلباب أزرق قذر ، مرقع فى نواح عديدة بألوان داكنة — فهذه أشياء اعتادها من الفلاحين الذين يمرون عليه — بل لأنه منذ علم أن المتهم أحد جماعة الغجر الذين تطاردهم النقطة ، وهويـرمقه بعين كارهة . لم تكن نظرة رجل إلى رجل ، بل استعراض نوع راق لفصيلة منحطة . لا تقع يده على كتفه إلا تملكه تأفف قريب من الغثيان ..

الغجر ! هل هم من بنى آدم ؟

دخل الغجرى غرفة السجن وعلى فمه ابتسامة يبعثها الارتباك فهي باردة سخيفة ، زادت بلاهة وطولا عندما وقع نظره على شاب جالس فى ركن ، فراه يتسم أيضا .. أشاح عنه بوجهه وقبع فى ركن آخر ، وعمد إلى التفكير فى نفسه ليتسلى .. لم يطل جموده .. وعاد بعد قليل يختلس من الشاب نظرات سريعة أنعشت فيه شيئا فشيئا شهوة التحدث . فتقدم للشاب يسأله عن اسمه وبلده وتهمته ، وتشعب الحديث . وجاء اسم مجرم شهير ، فذكر أنه يعرفه ، بل بينها نسب بعيد . فسأله الشاب :

— « أنت بلدياته ؟ »

— أيوه .. أنا وهوا فى شياخة واحدة .

— أنا سامع من العسكرى يقول لك ياغجرى .. إيه الى ملك

على الغجر امال ، إذا كنت فلاح ؟ »

وزادت الضجة فى حوش النقطة، وسمع صوت البنادق توضع فى « السلاحليك » ، وأحذية المساكر ترن هنا وهناك . وجاءت « داوزية » من ثلاثة خفراء ، وجلسوا يتحدثون بجانب السجن ، ووصلتهما كلماتهم واضحة ، وضحكياتهم كلها . اقترب الغجرى من الشاب حتى جلس بجانبه .. لم يختل بفلاح منذ مدة طويلة . وفى وحشة السجن ، ووسط الضجة غير المألوفة ، شب فى قلبه عطف وحنان لزميله . وقد يكون من أثر هذه الظروف كلها أنه

بدأ يتكلم غير محتد ولا مراوغ . لم يكن يقص حكايته ، بل كان يعيش ماضيه من جديد .

« كنت مستأجر من أخو العمدة ١٤ قيراط ، وكان عندي كام غماية أطلقهم في الغيط وقت الربيع .. لما جبه النيل بقيت من غير شغل . فصاحب الطين قال لي : يا عليوى ما ترحش وانت بطال بالغنم بتوعى لغاية المنيا ، توصلهم لواحد تاجر هناك ، معرفة ولك على ياعم إنى أبسطك خالص . قلت له : الطريق واعر على . قال لي : أنت واعى فى الغنم وأنا مختارك ، أنت رجالى، الطريق الى انت خايف منه سهل . خليك مع الإبراهيمية مبحر مبحر تلق نفسك حدا المنيا . وراح الراجل اشترالى سكين كويسة وادانى حماره ، وسلم لي ٦٥ رأس . فخرجت بهم من البلد والميه فى الحوض علو قدم .. وفضلت سايق على جسر الإبراهيمية والغنم قدامى .. ! »

... وليس الحروف — رغم أنه حيوان غير نفور — بسهولة القيادة . فخطوته بطيئة ، إن لم تجد حثاً مستمراً وقفت . وأفراده المتفرقة لا تجمعها سوى عصا متيقظة . وكان عليوى تارة (يخلق) على السيارات المتتابة و (يحجز) الغنم بنبوته الطويل ، وتارة يتزل فى بعض الغيطان وراء كبش شارد وقد يلبث النهار كله لا ينطق إلا بشين يطمها ويصفر بها. ونبوته الطويل ينقر ظهور الغنم نقرات قوية تضمها فى قطيع واحد يسير ، فتثير أرجله القصيرة الدقيقة سحباً من التراب . تتوالى نداءاته (ماء ماء .) بعضها جاف

قصير ، وبعضها يكاد يتكلم . وتسمع فيه استغاثة لاشك فيها .
منها الأجنس الغليظ يخرج من حلق أيبسته السنين ، وبعضها كذبذبة
وتر رفيع ، تبعثها أجمال صغيرة لم يتبين لها بعد ظهر من بطن .
كل سيرها وثبات جانبية ، وتناطح وهمى . يتطاير منها النشاط والمرح
فقطيع الغنم - هو الآخر - يحمل بين طياته السلسلة التي تربط
الحياة بالموت !

وخشى عليوى على حمل صغير أن يضل ، فرفعه من ساقيه ،
فتعالت مأماته وتكررت . وسار به يشق لنفسه طريقاً وسط الغنم ،
ويضع يده هنا وهناك ، فتقع على موج من الصوف قد ألهبته الشمس ،
وذاب في عرقه تراب كثير ، فهو متلاصق ساخن تحته أجسام
محمومة صابرة على ألمها . حتى وصل إلى الحمار ، وفتح كيساً ووضع
حملة . وكان يتبعه في سيره ويشق الطريق بمجهود أشد من مجهوده
وبإرادة تكاد تنطق أن لن يثنيها عن عزمها شيء . نعجة هزيلة ،
لها عن كل مأمأة جواب ، فيه نداء حنون تحقّي تحته ولع الأم وجزعها .
ولم يكن مظهر عليوى ينبئ أنه يستطيع تحمل عبء القطيع ، فهو
فقّي لا يزال في ميعة الصبا ، قد لا تلاحظ العين أدلة وراثته الفرعونية .
من قامة مديدة ، وصدر عريض ، إلا أنها لا تخطيء نحافته الواضحة .
فليس هناك تناسب بين قدميه المفرطحين وساقيه الرفيعتين . تحت
ترقوته هبوط غائر ، قد يكون من الجوع ، تقيم عليه عظمتان
بارزتان ينهى عندهما شعر صدره المكشوف . وجهه من جلد وعضل

مشدود منها جرى لا يهتز فيه لحم . وإن حرك فكه ، تكسر سطح صدغه فجوات وكرات ، ودغم هذا كان لا يفتر عن الحركة ، تجدد نشاطه قوة خفية تسيل في الوادي ، ولا تقل عن النيل جرياناً .. لم يفن صم كالهرم . ولا قبرتها آلاف السنين .

كان عليوى يقطع المسافات ، ولا يتبقى في ذهنه من الطريق سوى أسماء القرى أو قباب صغيرة بيض لبعض الأولياء ، منهم من يعلو الجسر ليدفن البلد حوله موتاهما ، ومنهم من يهبط للحوض لينعم الزرع ببركته . فعليوى - كفلاح . ولأنه يجتاز الطريق لأول مرة ، قليل الصلة بالأماكن التي يمر عليها ، لا يلفته إليها سوى مصلحة شخصية . فلم يؤثر عليه بشيء جسر الإبراهيمية ، وهو يبدو تحت تأثير شمس الصعيد المتوقدة في منظر كربه تظلمه سحابة من التراب المنعقد ، يمتد أمامه شريط ضخم من التراب المكس ، مشرذم الحوافي .. يتوالى هبوطه وارتفاعه ، ويردد سطحه غير المستوي بين الضيق والسعة . يزيده قبحاً أنه كثير الارتفاع ، فلا تبدو من الأشجار المغروسة عند سطح الماء سوى فروع قصيرة تحجب المنظر ، ويستطيع السائر أن يلمسها بيده . من لعلوى بمن يخبره أن ليس كل ارتفاع الجسر من التراب . ففي أحشائه أيضاً هياكل كثيرة من عظام الفلاحين . وقد يكون فيهم بعض أجداده - الذين فتحوا التربة بطول أربع مديريات بمعاولهم البسيطة . وربما بأظفارهم أيضاً ! ! وكان يموت الفلاح فينال التراب عليه ، كما هو معطفه ومعوله ، وجلبابه الأزرق الوحيد .. أكل الجسر أجسادهم ، ومحا لحومهم . وما على جلودهم من أثر الكراييج .

« ... فى رابع يوم بعد أذان العصر بشوية ، حصلت نزالى جانب
و كنت ناوى أمشى طوالى وأبات بالغنم فى صنبو ، لكن ما عرفشى
ليه اللى خلانى أوقف الغنم قدام البلد دى ، إن قلت كنت تعبان
أكذب .. يمكن علشان لقيت على الحسر و ابور طحين خربان .. »
فقاطعه الشاب فى لهجة أقرب للهزؤ ، أو إنصات الرجل للحديث
طفل .

« ولا قسمتك جات كده .. »

وكان الشاب لا يزال يبتسم . لم ترتفع عينه عن عليوى تراقب
فيه منظرأ مسلياً .. فمذ شعر أن عليوى يؤاخيهِ . وهو يحتقره وكلما
قاطع الحديث بتهكماته ، وكثيراً ما فعل ، اهتز جسمه سرورا ..

« ... ربنا عالم .. أنا ما صدقت لقيت للوابور سور كبير ،
رحت صافف الغنم جنبه وقلت : الليلة دى تنتهى بالنوم ، ولا حدش
يهرب منك وتفضل تجرى وراه .. واستكنيت .. أدنت العشا ، بجيت
جنب الغنم وقلعت بجلاييتى وحطيت راسى على دراعى ونمت .. لسه
عينى ما دخلتش فى النوم إلا ولقيت جماعة بجايين على من ناحية البلد
وسطهم حمارين ، وقدامهم شوية معيز ، لما حصلونى لقيتهم جماعة غجر
قلت أعوذ بالله من دا حظ يمكن ياواد يفوتوا طوالى .. وقمت ركنت
نفسى أشوف ليه اللى ح يحصل .. جم حداى ووقفوا .. وشويه لقيتهم
فارشين حوالى .. »

عمد رجلا ن إلى الحمير فأنزلوا منها أستاراً رقيقة . أمالوا الواحد على الآخر ، فإذا أمام عليوى خيمتان صغيرتان .. ودقوا أوتاداً ربطوا فيها معيزهم ، وأخرجت امرأة « حلة » وجلست تفركها بالتراب ، ثم ذهبت إلى التربة . وجمع أحدهم عصياً ثلاثاً في حزمة ، ثم قردها وثبت قوائمها بالأرض ، وجاء بقدر علقه من وسطها ، وأشعل النار تحته ، ومال بوجهه ينفخ فيها وبعد قليل انتشرت رائحة الشاي ، وانتبه الغجر لحاوهم « وواحد منهم قال لي : انفضل اشربلك فنجان ويانا .. قمت رايح وقعدت » ، فسأله الشاب :

— « كان بقالك زمان ما شربتش شاي ؟ »

— « ما انت عارف الفلاح عبيط ، ما يقولش في عزومة لأ . لكن أقولك الحق إني خفت .. كل الحكايات في بلدنا عن الغجر أنهم حرامية وخطافين ، ولهم حيل ما تبيش ع البال . أنا قلت في عقلي ياواد اتفرج ع الناس دول .. كانت وياهم بنت ، فضلت ثروح وتيجي قدامي ، مخدتش بالي منها إلا لما شفت الرجالة مكشرين لها . ما حدش يكلمها منهم بلطف وإنسانية ، إلا كله بشخط ونظر . ساعات ترد وساعات تمشي ساكتة . ما عرفتش عملت فيهم إيه لأنهم يشتموها من غير ما يسمعوها (يا مجنونو ! ح تشوفي .. ح نوريكي) . بقيت بعد كده كل ما تفوت قدامي أبص لها . » .. فوجد فيها وجهاً شديداً السمرة ، يكاد يكون كامل الاستدارة ، وأنفاً دقيقاً ، على جبهتها نقطة خضراء . وعلى ذقنها وشم غص . قصيرة القامة ، معتدلة الظهر ، رأسها كثير اللفتات تنبئ عن عصبية قوية ..

وكانت تخفى غضبها بضغطة ظاهرة على شفقتها زادتها طولا وضمورا
ولما جاءت تناول الأقداح ، فاحت له منها رائحة غريبة عن أنفه ..
خليط من عرق وقذارة ، وعطر فيه قرنفل وشند (١) ولم يشعر علىوى
إلا وهو منطلق في الحديث ..

« فضلنا نتكلم .. وفضلوا يسألوني عن الغنم : رايح بيهم فين؟ ومعاى
كام ؟ أنا خمت يكونوا بيسهوني عن حاجة والا ملعوب . قلت
قوم حوش عن غنمك . رجعت مطرحي مقدرتش أيام .. يادوبك
عينى بعد نص الليل غفلت ، إلا وصحيت على نبح الكلب . وأبص ألاقي
غنمى متفركة قدام ثلاث عساكر ، خيولهم عينيها في الظلام زى الشرر
لسه فاكرهم لدلوقتي .. بقيت مخبول أجرى وأقع .. كل ما التفت
ناحية العجر ألاقي العسكر نازلة في الخيام هد ، والنار انطفت وبقت
دخان . وسعت الشتمة نازلة فيهم : « يا حرامية .. يا خطافين يا ولاد
الكلب .. » دراعاتهم تهتر فوق رؤوسهم ، يزعموا : « فى عرضك
باسعادة الشاويش .. » ولا كن ولا فايده .. لموهم كلهم فى
سلسلة وأنا فضلت أجمع فى الغنم ، اغاية ما حملت ربنا وانلميت عليهم
رجعت مطرحي ، بجيت أشيل الجلابية وأنام ، ما أبص إلا ألاقي البنت
الغجرية مكومة نفسها ولا زقة فى الحيطه أقولك الحق ارتعشت من الخضة ،
ياخبر اسود اليه التهمة اللي جياالى دى ؟ ا

— بنت إنب هنا ؟ إيش جابك ؟ بتعملى إيه ؟

(١) نبات عطري يستخدم للبخور .

شاورت لى بصباها .. لغاية ما بعدت العساكر خالص اترمت
على وقالت لى :

أنا فى عرضك .. دول كانوا عاوزين يموتونى .. فاكيرين
أنا اللى دليت عليهم فى سرقة القوصية ، حبسوننا كلنا . وأول ما طلعم
سرقوا تانى .. فى عرضك خدنى وياك .. مطرح ما تروح أروح ..
بس أبعد عن الناس دول ... »

ومدت الغجرية ذراعيها وتعلقت برقبته لم تكن ترتعش ، ولا كانت
سربعة التنفس ، وكل ما تغير فيها أن زالت ضمة شفقتها فباننا متضخمتين
وانفرجتا عن سنين كبيرين ، وتركت عينيها مسبلتين ، لعله التعب ،
أو كأن هذه أول تجربة صادفها عليوى ، وربما أيضا لانه لم يشم من
قبل رائحة الشند والقرنفل عن قرب .

سواء كان هذا أو ذاك ، أحس عليوى بقواه تدوب بين يديها ،
وترأخت ذراعاها بجانبه .. وعادت لذهنه صورة هذه المرأة وهى تمر
أمامه عندما كان يشرب مع رفقاءها الشاى ، وتذكر لفتات رأسها .
ولم يكن يدرى وإن كان قد أدرك الآن — أن لهذه اللفتات جاذبية
عجيبة وسحر قوى .. وطال صمته ، يعلله ضميره بأنه من آثار
تربيته التى علمته منذ الصغر أن يرهب الغجر وينحشاهم . ولكنه لم يرد
ذراعى المرأة ، بل أحس بعد قليل أن ما انحل من أعصابه عاد ينفر
فى جبهته ، ويجف فى حلقه ، ويرتعش فى قلبه . واجتمع هذا وذاك على
ملء عروقه بدم يغلى ويطن فى أذنيه .. وإذا بذراعيه على ذراعيها
يتبادلان ضمتهما ..

وزاده التهاباً أنها ابتدأت تقرب منه شيئاً فشيئاً .. وكان يدفعها نحوه شعور هو خليط من الفرح والعناد .. وربما لم يكن شوقها للرجل ، بل لتذوقها لذة حريتها في ليلتها الأولى . ثم ما إن بادها الرجل ضممتها ، حتى انطلقت من مكمنها رغبة قوية طالما كبثت فكانت في انفكاكها هوجاء .. ولكنها حريصة على نفسها إلا تفنى سريعاً .. فهي تضغط على حديثها وتغطي عنفها بستار من الاتقاد واتزان الخطورة .. وجعلت كل همها أن تعطى للرجل ما لم ينله من قبل وأن تأخذ منه أكبر ما تستطيع .

وكانت وفمه على فمها تلمع في نظرتها ، رغم الظلام ، صورة الانتصار . ولو كان للغريزة جسد وأشرفت عليها ، لهزت رأسها رضا وافتخاراً ، ولدافعت عن نفسها بأنها لم تكن لترضى من أغلب الناس بالعبارة المحتشمة المتسريلة في الحياء والخفر ، إلا لأنها تنقل لأفراد قلائل منهم ، وفي أوقات متفرقة ، كامل قوتها ، فيهبونها أرواحهم ويدعونها أن تحل بهم من غير شريك ..

ولم تطل القبلة ، لأن المرأة استيقظت وتنهت لموقفها فقامت وسحبت الرجل من يده ، ودخلت من ثغرة في سور الوابور ، وشملها الظلام .. وكان على الكلب هذه الليلة أن يحرس مع الغنم سيده ..

... « قصره بيتت معاني الليلة دى .. وقلت لها : يابنت الحلال أنا أخاف الله .. وأحب حكم الشرع .. قالت لى أنا وهبتك نفسى .. قلت لها : وأنا قبات ، وإذا سمع عنى حد أقول : فلاحين كثير

بيجوزوا في البنادر بالوهبة ..

قال له صاحبه :

« — لا كن مش ع الجسر .. ومش مع الفجر — ساعتها ما كنتش

دارى بنفسى » .

... لا يدري كيف نام وهو يسوق القطيع ، فطلع عليه النهار وهو من المسرقين أمام قدر لا تفرق عصاه في دفعها للأحياء بين بني آدم والغنم .. ولكنه رغم هذا يشعر بأن هذه المرأة غمرته بلذة جديدة عليه ، فأنقاد لها كأنه متعب ، يجد بعد جهد فراشاً وثيراً .. وترك عليوى نفسه ترتاح وتستند إليها .. لا يهمه وهو في هذا النعاس المعسول — أى قيد غللته به .. ما دام تيار الحيوية الذى استيقظ فيه — ولا يستطيع بعد ذلك كتمانها — لن يجد في غيرها مصباً يتدفق فيه ويزخر .. ونسى عليوى من أيامه ما مضى ، وقصر همه على الساعة التى هو فيها .. وفي الصباح كان يسير وراء القطيع وهو لا يزال مدهوشاً ..

... « مشينا تانى في الفجر وأنا مدروخ .. حصلنا ديروط .. لا لا ... نسيت. بعد ما مشينا شوية بصيت على الكلب ما لقيتوش .. رجعت أدور عليه ، لقيته جنب شجرة بيطالع في الروح ... » راقداً بمؤخره على الأرض ، رافعاً راسه على مقدمين مرتعشتين ، يهتز جسمه متشنجاً وحقق الكلب في صاحبه ، ولمعت في عينه لحظة بارقة أمل ، ثم أطفأها سريعاً حزن عميق صامت .. لم ير من قبل عيوناً تبكى مثل عيني الكلب الحامدين ، وكانت تكلمه وتقول : « هل هذه آخر مرة

تراني ؟ » وفتح فمه .. ولكن الموت كان قد انتهى ، ووضع يده على هذا الفم فلا يستطيع نباحاً .. وانحدرت بدل الصرخة سيول من لعاب لزج ، تنبىء عما فى جوف الحيوان من غليان وألم لا يعلمه أحد .. لم يفهم عليوى سبب الحادث .. لعل أحداً من الناس ضربه .. وكم من فلاح يضرب الكلب الغربى بقسوة ، أو لعل صبيّاً قذفه بحجر هذه الشهوة التى تتمثل بها أول فكرة إجرامية فى رأس الطفل .. ومد يده يتحسس ظهر الكلب فإذا هو سليم .. وشعر بالغجربة بجانبه .

« جت قعدت جنبى تتفرج . بصيت لها قالت لى : « سموه .. كانوا عاوزين يسرقوا غنماتك وانت نايم .. جم أجلمهم قصير ، وراحم فى داهية . ما ترعلش ، بكره تلاقى غيره ، وعلاشان ناطرك أنا جبت لك منهم معزتين هما دول اللى فى الوسط . قتلها : بتوعك المعزتين ؟ قالت لى : لا ، بتوعاتهم .. » فقاطعه الشاب من جديد .
— « أهى غنيمة وجاتلك بلاش .

— لا والله .. مارضيتش أبداً آخدكم لكن أعمل إيه . . . »

إن استطاع كلبه بين يدى الموت أن ينبج ، فليتكلم هو بين يدى التى سلبته عقله .. ولم يكن شىء أنطق بالاختلاف بين الطبيعتين ، من الابسامة الخفيفة التى تمشعت على فم الغجربة ، تقابلها تقطية ظاهرة على جبين الفلاح .. وخفتت رعشة الكلب شيئاً فشيئاً حتى تلاشت حركته ، وتجرأ الذباب على فمه وعينه .. وقام عليوى ليعود إلى قطيعه ، وقد تنازعت حسرة على كلبه يتركه وراءه ، ووجل من

المعزتين تسيران أمامه ، ويتمثل فيهما أول جرم ارتكبه في حياته
وهو الذى عاش طول عمره يرهب النقطة ، ويرتعش أمام العمدة ، يحس
العساكر باحترام ..

« من أول يوم لقيت الغجرية شاطرة .. حوشت اللبن اللى تحلبه
وباعته ، وكنت الأول أحتار فيه ، وفطمت لى كام حمل ! وخيطت
على النعاج كل واحدة كيس . نسيت هم المعزتين وقلت لنفسى
بكره ياواد ترجع لبلدك وتربى غنمك ، وإن كان معاك واحدة شاطرة
زى دى ، إيه ما تقبلش غنم الناس لما تودعها عنك وتسرح بيهم !
بكره رزقك ياواد يتسع .. وربك كريم .

« بعد كام يوم حصلت ملوى ، ولقيت فى مدخل البلد أرض بور
رحت سابب فيها الغنم ، وجيت عاجسر قبالة قهوة وقعدت ..
البنت غابت تحت مع الغنم .. كانت ليلة من أولها مقندلة زى الزفت ..
ما اعرفش جرى للبنت فيها إيه . انقلبت على فى الصبح قلبه واحدة .. »
نزلت الغجرية تجول بين النعاج بخطوة بطيئة ، لا شىء يدعوها
للبقاء مع القطيع . ولكن لا شىء يدعوها أيضاً للرجوع إلى عليوى .
بدأت تمل معبشتها الحديدية الواضحة تسير فى طريق معلوم وعادت
نحن لتجوالها القديم . كل لذتها أن تطارد من بلد إلى بلد ، ولا تزيد
صلتها بمكان أكثر من ليلة . زالت الفورة ، ولم يبق من عليوى سوى
رجل هادىء تستطيع أن تثق بطيبته . ولكنها مع ذلك تندم على حياة
نصفها محبة ونصفها عدااء . فالغجر أنانيون لا يقبلون الغرب بينهم .

وقد ظلت تخضع الرجل منهم ، لا عن حب بل عن اضطرار ، وكانت تجد لذتها في الصراع الدائم بين شدة مراسها وحقد أضغانها .
وأى لذة أكبر من أنها لا تخضع إلا بعد أن يعلو إلى فمها فيكاد يغرقها تيار ينسبها حقدتها . على عظمه ١٢ وكلما وافق الاسترضاء نقطة الانكسار تمتعت النفس بأقصى حدود النشوة ، أما الآن فهي تخضع ، سواء أكان التيار إلى قدمها أم إلى ركبته . لا تعرف لذة الشبع ، لأنها حرمت لذة الجوع . لم تكن تبغض عليوى ، ولكنها كانت تمنى لو كان من العجر .

قطع تفكير العجيرة نور مصباح يضىء على الجسر حيث يجلس عليوى ، وبدت لها قهوة في وسطها - وتحت المصباح - دكة خشب عليها رجل بيده ربابة ينشد .. فحسبت أفكارها وجاءت تستمع لقصة (حبس مرعى ويحى ويونس ، عند الزناتى فى تونس ، ورجوع الأمير أبوزيد إلى الأطلال ..) وتوالت صرخات الرجل ، تهداً عندها همهمة الجالسين . وكلهم أصاخ بأذنه للقصة وللأشعار وكلما تقدم الليل ضاقت أنفاس المصباح ، يزيدها اختناقاً حلقة كثيفة من ناموس كالتراب انعقدت حوله رغم دخانه المتصاعد . ولف الكون سكون شامل ، وكانت السماء فى ظلامها كأنها جناح وطواط حط على العالم . له بين الحين والآخر رعشة خفيفة .. هى سبب هزة هذه النجوم القليلة التى ترتجف ثم تثبت . ولم يستطع المصباح بأزيزه ، ولا المنشد بربابته ، أن يبدد بعض ما فى الكون من حزن جاثم .. هل الليل جثة

النهار ، فيكون هذا الحزن أنشودة الموت !! أم العالم في أسى ،
لأنه يشعر أنه يفنى شيئاً فشيئاً !! أو ربما كان من تأثير انعكاس
ما يجول في هذا الفضاء من آلاف الأرواح الشرقية التي خلقها الله
حزينة موجعة القلب !! وربما كانت هذه السماء ذاتها إذا ظللت الشمال .
عنوان البهجة وامتلاء النفس بالرضا والجلد ، وأصبحت هزة
النجوم رقصاً !!!

وثقل هذا الجو على الربابة . فهي تن بصوت متشابه . ووقف
العالم كله في ناحية ، والربابة في ناحية أخرى ، ودار بينهما حديث ،
وأفصى كل منهما للآخر بأسراره . وبلغ تأثر السامعين بالقصة ،
أن غاب المنشد عن نظرهم وتجسم لهم أبو زيد جالساً على الدكة
يصرخ فيهم صرخاته الحربية . واختلطت الأزمته في أذهانهم ،
لا يدرون أهو الذي بعث ليقص عليهم وقائعه ، أم هم الذين نقلتهم
يد سحرية إلى عصره السحيق !! واختار الشاعر قصيدة يعلم من
تجاربه أنها تؤثر في السامعين . واختتم بها ليلته ، وكان آخر
ما تغنى به :

على ما جرى يا ويح قلبي لما جرى والبين قيدني بستة قيود !
مما جرى لي من هموم تكيدني وقت إيش يا ذاك الزمان تعود ؟
نطق لسان الحال عن الدهر قال لي : زمان مضى ما عاد قط يعود !
يا عين ! إلبك على الزمان اللي مضى وأجرك على الله الواحد المعبود !

هل كان يعلم الشاعر المجهول وهو يصف آلام أبطاله أن شعره
سيقابلها على الجسر فتتلقاه كضربة السكين ؟ ربما كان يعلم هذا
ولاً كيف تكلم عما في ضميرها كأنه يعرفها من قبل ، وعاشرها
واستمع لشكواها مراراً ١١ ودمعت عيناها — ودموعها غزيرة
على كره منها . ثم استيقظت حذتها وشدة مراسها ، وكبت همومها ،
وقامت تنام وقد اعتزمت أن تنفذ الفكرة التي تشاغلها في الأيام
الأنخيرة .

« صحيت من النوم لقيتها ماشية ع الجسر وجلاليتها تحت باطها .
كانت ماشية بشويش ، لكن فهمت طوالى إنها هاربة منى . . رحت
جاردى وراها ، حصلتها ومسكتها من ذراعها :

— رايحة فين ؟ .

— ماشية . .

— ماشية فين ؟

— مغربة للجبل . يمكن أتلّم على أهلى هناك . .

— لوحلك ؟

— أيوه ، خلىنى فى سكتى وخليك فى سكتك .

— يابنت الحلال ، أنا قلتلك إن الغنم مش بتوعى ، صاحبهم
فى المنيا ، وبيننا وبينها دلوقى مركة كعب ، وأنا راجع وياك طوالى
للبلد .

راحت قابلالى طوالى :

— تغور بلدك باللى فيها .

حلق الشاب فى عليوى كأنه ينتظر منه غضبة الفلاح يقبل كل
شئ . ولا تسب عشيرته ، ولكن عليوى فى الوقت الذى يتحدث عنه ،
كان قد فصله عن أهله وعشيرته حاجز رقيق . لم تثر الإهانة إحساسه ،
فبلعها . . واستمر عليوى فى حديثه :

— « قلت لها :

— بلاش نروح للبلد . طب نروح مطرح ماتحجى .

— تعال وياى .

— والغنم ؟

— هاتهم معاك .

— مش بتوعى !

راحت لاوية وشها زى اللى زعلت من الكلمة دى . ومشت
تانى ، وقربت تغيب عنى .. كل دا والشيطان بيلعب فى عقلى » .

وقف عليوى وكل عرق فيه نابض متيقظ ، أسكرته حديثه
فطاحت رأسه ، يقع نظره مرة على المرأة ومرة على القطيع ،
ووقف الشيطان أمامه ممسكاً بالميزان يبتسم له .. ثم هوت كفة
المرأة ..

.. « ورحت صارخ فيها :

— هوى .. هوى .. أنا جى .

وجريت للغنم ، حاودتهم من ع الجسر لصليبية مغربة للجبل .
ومشيننا مش عامل للدنيا حساب .. وما نيش عارف أخرتى ح تكون
ليه ..

فى الليلة دى شفت منها حاجة عجيبة .. كنا فايقين على عزبة ،
لقينا فرخة فى الطريق عما تلقط .. راحت البنت طلعت من جيها
خييط طويل مربوط فى آخره حباية درة ، ورمها قدام الفرخة ،
راحت لقطاها .. ووقفت فى زورها .. قعدت تحك منقارها فى
الأرض ، عايزة تصرخ مش طايفة ، والبنت سحبها شوية شوية
وحاطتها تحت باطها . وتوما بعدنا عن البلد دبحتها .. حصلنا الجبل ...»
— «استنى .. مين اللى أكل الفرخة ؟
— أكلناها سوا .

— واشمعنا ما عملتش البنت الحيلة دى قبل كده ؟
— أنا عارف .. دى كانت نازلالى بالسهم .. وأنا بقول ياسابل
سترك ..

— أيوه .. اللى يسرق خمسة وستين رأس يزور فى فرخة !
فصمت عليوى وارتفعت له تهديدات طويلة .. وكأن القمر
قد غاب ، ووصل إلى غرفة السجن المنفردة فى وسط حوش النقطة
بصيص من مصباح معلق على بعد ، وتوالت دقائق أرجل الخيل
قوية على الأسفلت ، ونهق حمار بجوارهم . ثم هدأ الجو من جديد ،
وعاد عليوى لقصته ، منكسر القلب ، قد زال حنانه لزميله ، فكان

منكمشا في نفسه يقتضب حوادثه .. لم يكن يحيا ماضيه ، بل كان
يتذكر بجهد بعض ما جرى له ...

.. « قابلنا في الجبل جماعتها .. واختلت بالكبير بتاعهم شوية ..
الله أعلم اتكلموا على ، وشفتها بتشاور على الغنم ، والراجل بيص
وياها زى اللى بيعدهم ... مشيت وياهم .. بعد يومين ولا ثلاثة ،
لقيت الغنم نقصت راس .. الحق دمي فار .. مسكت البنت وقتلتها :
الى عاوز يفقد حياته يقرب للغنم .. »

قالت لى : « إحنا دلوقت غجر مع بعض .. كل حاجتنا
ويا بعض . »

قلت لها : « غجر مش غجر أنا ما افهمش الكلام دا .. »
راحت لاوية بوزها على وقعت ما تكلمنيش . جيت لها بعد يومين
وقتلها : يابنت الحلال أنا بعث أهلى وشرفى علشانك .. مالت لى
تانى ، لكنها كانت بتطرخم على .. وكل ساعة تقول لى : ما تخافش
على غنمك الغجر ما يسرقوش من بعض .. برضه ألاقي الغنم كل
لما نقرب على سوق تنقص راس ولا راسين .. كدبت على .. «
- « هى ما كدبتش عليك .. أنت عامل نفسك غجرى ، وهما
مش عاملينك .. علشان كده بيسرقوا منك .. دانت نهية لهم ..
نهية حلال .. »

« - صفصفت الغنم على عشرة .. على خمسة .. قلت ديهد
ياواد ؟ ح تطلع بلبوص والا ليه ؟ وفى ليلة استغفلتهم وقمت قبل
دما وطين - ٩٧

الفجر ، ورحلت جارد الى فاضل ، ومشيت للسوق بعثهم وانفضيت .

— « استغفلتهم ؟ هما الغنم مش بتوعك ؟ »

لم يجب عليوى واستمر فى قصته :

« .. من قيمة جمعة أخذوني هيله بيله وسرقوا .. وسرقنا سوا ..

كيس قطن من غيظ .. امبارح بالليل مسكونا .. » .

وكان لابد أن يتلوق عليوى بعض ما يلقاه الغجر من الإهانات والمطاردة . وجاءت الليلة التى خبر فيها كيف تهجم الخيل ، ويقع السوط ، ويوضع القيد فى اليدين . . ولكن صحبة الغجر جعلته يستقبل الشتم والقيد والكرباح مطمئناً . . منذ سنة شاهد ماجرى للغجر . . فكان جزعه — كمتفرج — أكثر منه اليوم ، وهو مضروب يسير مكبلاً بالحديد للنقطة — — سنة مرت عليه لم تفن من عمره . قدر ما هدمت من أخلاقه وعاداته . . كان فلاحاً يهتمه النيل والعمدة والنقطة وحدود أرضه يقيسها بالشبر وبالأصبع ، أما الآن فهو غجرى لايهمه سوى اليوم الذى هو فيه . . الدنيا كلها أمامه لاحدود لها . . إن استطاع أن ينال منها شيئاً فليخطف . . وهو سعيد .

وسأله الشاب من جديد :

— « والعساكر جابتها وياك ؟ »

— البنت ؟ لا يرضه هربت .

- على الله ماتلاقيش الدور دا واحد تانى تجيبه الأرض . .
- لا . . حلاقه منين ؟ أنا تو ما اطلع أخرج أدور عليها .
- لم يسخر به الشاب هذه المرة بل ثئاب وتمطى ، ثم رقد على الأرض . وقبل أن ينام أنشد بصوت منخفض ، دون أن يتغنى ،
- هذا الموال :
- تقدر نسيب حبيبتك ؟ وإن كانت ياعين . . ساءتك
- ولا جابت المعروف الكاس دوتها لك . . وسقتك
- ولا رفعت عليك عصاية وقدامها . . ياميت ندامة ساءتك
- ليلي ليلي يا وعدى . . .

أبو فودة

يوم وقفة العيد خرجت من (المركز) «شحنة» المساجين الذين
قضوا ثلاثة أرباع مدتهم ، فضاقت الشارع بحلقات الأهل والأحباب
تتخاطف نصيبها وتلتف به . كادت الزحمة تزول ، وجاسر هنيدي
لا يزال مكانه . ليس في المساجين غيره من بنى شقير . لم يكن
في انتظاره أحد . فلم يبق له من الأقارب سوى ابن خاله اسماعيل ،
وآخر مرة رآه كانت قبل خمس سنوات عندما زاره في طره .
لم يكن مبتسماً ولا حزيناً ، ولا خطر له أن يتساءل هل اسماعيل حي أم
ميت ؟ فهو مشغول بمراقبة ركاب الحمير والسائرين ، يلاحقهم بنظرة
خالية من الفهم وإن كانت حية ، يشد الدهول فمه إلى أذنيه ،
ولكن ابتسامته لم تولد بعد .

بعد برهة سار يقصد البندر . لم يصل وابلور الطرزي حتى وقف
من جديد يراقب جمعاً أغلبه نساء حافيات وسطهن غازية ترقص

حول قلة . جاءت فوقها تغطيها بملابسها وقعدت . ثم قامت ،
فإذا القلة قد اختفت معها ... على وجوه المتفرجات سعادة صادقة
وإعجاب : كيف استطاعت ؟ ويسأل : المتفرجون : أين
وضعها ؟ والراقصة لا تزال على شخلة وتقصعها . تملأ الجو برنين
الصاجات .

وخرج من الوابور عدة نساء قد علق الطحين بوجوههن . على
رؤوسهن قفف . كبيرة لا يحملها إلا مثل رقابهن الغليظة ، فقابلهن
المنتظرات بزغاريد عالية .

في هذه اللحظة لمست كتفه امرأة . لم ترفع نظرها عنه منذ أن وقف
بجانبا ، ولكنه في شيء من الإلهام بادرها :
— « الطحين ده لفرح من بنى شقير ؟
- أيوه .. انت مش ابن المرحوم مبارك حاج جاسر ؟
- أهو أنا .. النهاردة بس خرجت » .

احتاط الشقراوية بيلدياتهم ، وتلفت وجه لوجه ، وتنقل همس من فم
لأذن ، فإذا من الرقع المتعددة ، تنشر من جديد في ثوب خاق ،
حادثته القديمة .

نجاسر عامل في محجر أبو فودة ، أمل أبيه الرجل الطيب الشيخ
مبارك . ولكن نزق الشباب يقوده في معظم الليالي لمنفلوط ، يصرف
وهو مخمور كل مكسبه على حميدة : فتاة تقودها للفحش المتستر

أمها العرجاء . هو في الجبل شرس ، شكس الطباع ، يعجب بقوته
ويزهى بها على زملائه . كلما اجتمع العمال ، ولا يعدلون بطبيعتهم
عن الدائرة والقرفصاء - كان هو بدون مجهود واسطهم ، وقامته
تعلوهم . لهم جلسة يومية عند سفح الحجر ينتظرون المعدية . كان
الحجر في هدوء لا يشعر بوجوده ولذته إلا من خبر ضجته . وجاسر
يحكى لهم شيئاً يضحك ، فهو يصف لهم خناقة له مع رجلين على
الحجر انتهت بهربهما . . وعن ثور هائج مسكه من مقوده وأوقفه .
أىكون أقوى من هذا الحجر الذى يرويه أمامهم ؟ انه يراهن من شاء
منهم أنه يرفعه من مكانه .. وقفوا حوله . ومال جاسر . وباعد رجله
واحتضن الحجر ، يتمايل على الجبين وهو ينقل يديه ، يتفحص خصمه
ويصل بين روح الحجر وروحه ، وانتفض نقضة كتبت نفسه ،
فامتقع وجهه ، وبرزت عروق رقبته ... ولكنها ماتت في جسمه ،
والحجر لم يتقلقل ، وجاسر منكىء لا يتنازل عن محاولته .

لم يطل الصمت ، قطعه صوت من بين شفتين كله احتقار
واستهزاء ، عدل بالأنظار جميعها عن جاسر إلى متولى : شاب واقف
في المؤخرة صغير الرأس ، أعنق ، أذناه لاصقتان على طرفى قفاه .. وأردف :
- « إذا كانت حميدة هي اللى أخذت قوتك ، احسن تسبب
الحجر لراجل .. دا تقيل عليك .. »

أظهر التحقيق أن للقتيل علاقة بحميدة ، ولكن لم يثبت إن كان
جاسر على علم بها . واختلف الشهود ، لا يدرون هل كان القادوم في

يد جاسر ، أم خطفه من أحد الواقفين ؟ أخذ متولى الضربة وارتمى على الأرض ، له حشجة سريعة متكررة يوقفها حيناً بعد آخر ، صوته حلق يابس يشرب ماء متدفقاً ، هو سيل الدم يتزف على ستر من مخه إلى جوفه .

ولكن وحشية هذه الحادثة لم تقو على خمس عشرة سنة تفل أصلب الذكريات . وأخذ الشقراوية ، عندما نفدتها مسهم يحيطون بجاسر يهثونه . فللفلاح مبادرة من قلبه لاثنين : حاج يعود ، أو مسجون يطلق . سلسلة من مظالم لا يعلم أولها . هي التي لا تبخس قيمة الطليق عندما يعود .

وفوق ذلك . فإن منظر جاسر يدعو إلى أن ترق له قلوب بلدياته . لم يميزه الذين يعرفونه منهم إلا بصعوبة فقد تركهم شاب حليق قوى الذراعين ، وإن كان محني الظهر قليلاً ، يمشى يهد الأرض . وأمامهم رجل في ذقن قد عفرها الشيب ، هزل وجهه ، فعرضت عظمتا خده عن عينيه . ربما تكون قامته قد اعتدلت ولكن كتفيه تقوستا .. مشيته على الأرض زحف كأنه يسحب معه ثقلاً .

وسار الموكب بأناشيدة ، وجاسر في المقدمة . قد ولدت له الابتسامة ، فإذا هي ضحكة عريضة تبين عن أسنان غليظة . وجهه يتهلل عن بشر صادق . في نظرتة لذه تمتع ورضاً لا ترى إلا في عيني طفل .

على أن أحداً من المحيطين به لم يفهمه . ليست ضحكته من عودة حربته وحذب بلدياته عليه ، بل المفارقة تملأه سروراً ها هو —

من غير أن يحنسب - يعود لبلده في زفة ! لم ينلها أحد من المسجونين
الذين سارعوا بالتفرق عنه وتركوه . يذكرهم في سره ويضحك .
فأكل طبخته ، خير فكاكة لمن تنزل عليه المائدة !

وجاسر ذكى ، مهما قالوا عن قساوة قلبه زمن حادثته وعن
وحشيته في طرة ، يصبح في مثل هذه المواقف حيواناً كامل الإنسانية
يرق قلبه ، وتنفث نفسه ، ويقبل على الضحكة بشغف ، ولو وجدته في
أضيق المواقف .

جىء من الجلسة بعد سماعه الحكم وأودع عربة السجن وجد بجانبه
شاباً صغير الجسم مسود الأصابع . ربما كان جز مجياً أو طباعاً . سأله
الشاب :

« طلعت بكام .

خمستاشر سنه .. أشغال شاقة .

في طرة ؟

في طرة ولا أبو زعل .. زى بعضه ..

ح تنحت الحجارة في الجبل طول النهار ؟ ياخبر أبيض الله يكون
في عونك .. »

أدار الحجار وجهه للشاب ، فإذا عليه نفس التهلل والرضا واللذة
التي تنطق بها عيناه وضحكته الآن وهو يسير في رأس الموكب .
الضحكة واحدة رغم بقائه خمس عشرة سنة سجيناً . قد تكون
لعبت بجسمه ما شاءت ولكنها ، لم تمس روحه . وما هو يعود كما

كان ، شاباً نفسه متفتحة للحياة ، ولا يدرى أحد الآن بعد هذا الغياب ما مقدار جوعها رغم هزاله ، وما بن قدميه والأرض من نضال .

ودخل الموكب البلد ، ووصل الخبر إلى إسماعيل ، فجاء بذراعيه يجرى إلى ابن عمته . شاب مصفر الوجه متردد متلعثم ، أربكه وصول جاسر . وقفت زوجته تنادى الجيران تشهد منهم دستاً ، (١) وأخذ هو يجرى هنا وهناك ، حتى استلف ثمن رأس سكر ، وخرج يسقى الشرابات للجيران وقد تجمعوا عليه يهتفونه هو .. في سره يقول :

— « أهى مصيبه ونزلت على » .

وهبط الغروب على البلد ، وأخذ كل يعود لداره بدوابه وأغلقت الأبواب ، وهمدت أجسام أضناها الشقاء ، ونعست جفون . ولما هدأت الضجة ، سمع في قبال البلد نواح ضعيف ونهبة .. هي أم متولى : جاءها خبر عودة جاسر فجدد مناحتها .

ثغرة في جدار الحوش السماوي تصل منزل إسماعيل برحبه مسورة كان أبوه يخزن فيها حطبه ويربط جاموسه . ولما أكل الابن ماله ، بقيت مهجورة تجرى فيها الكتاكيت . لها باب من خشب الصناديق يفتح على أرض نخيل مهملة .

في ركن منها مسقف بالخريد ، نزل جاسر مؤقتاً حتى يجد عملاً ومسكناً . وفي البلد عرف ، لا يقر منزلاً يجمع رجلين وامرأة ..

(١) انا... اسطواني كبير .

فجاء إسماعيل بحزمة من البوص في قامته الرجل وسد بها الثغرة وحلوق
الجيران . ليس لهم بعد ذلك ما يشكون منه . ولكن في قلب إسماعيل
يقيناً بأنها « مصيبة ونزلت عليه » . ماذا تفعل في جاسر حزمة البوص ؟
هو منذ الصغر يتحاشاه ويتهرب منه . طبيعتها ضدان . مال جاسر
إلى الخمر ، وعمد إسماعيل إلى الأفيون وحسن كيف (١) خشونه الأول
جبرته منذ الصغر إلى المحجر ، وأتلف الثاني ما تركه له أبوه وهجر
من البلد . رأى جاسر في إسماعيل أنه عبيط خام . ويشكو إسماعيل لكل
من يعرفه عن شقاوة ابن عمته وأذيته لخاق الله ..

ولو كان متزوجاً من غير نرجس لكان عليه الأمر . فهي امرأة
(محرؤية) يعلم الكل عنها أنها (نتاية) ، أكثر فهماً لطرق الإغواء
للرجل من فتيات البلد . يقولون إنها سبب فقره ، لأنه يجرى وراء
ذيلها ، ثم يحسدونه في الوقت نفسه عليها . في ضميره وسواس
دائم أن هذا الحسد يخفى تحته نوعاً من الاحتقار ، كأنهم يستكثرونها
عليه . إيمانهم بأنه تحت قدمها ، هو الذي يقلل من الإشاعات التي
تصل إلى أذنيه عما تفعله ، من وراءه . وهو الآن لا يستطيع الثقة
بإخلاص زوجته ولا بعفافها ولكنه يعيش كما يعيش زوج كل
امرأة خليعة . إذا كان يهاها : تأجيل مستمر لليقين ، واستساغة دائمة
للبقاء على الشك .

وزاد من هموم إسماعيل أن جاسر يهبط عليه في وقت توقيع الحجز

(١) نوع من التبغ المخلوط بالمسل يمدح في المجوزة .

(على بياضه) (١) وغرقه في الدين لرقبته ، وحرصه على « ربيع
ذرة » يقيمان مع المش والبصل أوده .

ظل جاسر في أول الأمر بعيداً عن التفكير فيما وراء حزمة البوص ،
فقد اتخذ من ركنه منامة لا يأوى إليها إلا مع الليل في أول أيامه أخذ
يتجول في البلد والغيطان ، وزار منفلوط مرات متوالية . ثم ترك
ذلك كله و (تزين) على دكان خليل ، حيث وجد من العجائز وبعض
ضيق الشباب أصدقاء يتناوبون شرب أقداح شاي معكزة كالخير .

في هذه القهوة سمع عن خيبة إسماعيل في زواجه من هذه البجراوية
هو رجل « هايف » لا يعلم من ملاعيب زوجته شيئاً ولا هم يعلمون
ولكن ليست على عيونهم مثل عيني غشاوة . ماذا تفعل في البندر يوم
السوق ؟ إنها تزوغ من وسط بلدياتها وتختفي من أول النهار لآخره .

أخذ جاسر — وقد ملأت هذه الأحاديث أذنيه — يسارق نرجس
النظر . لحها مرات قليلة تروح وتغدو في دارها . ثم رآها تسير يوم
السوق وقد شلت طرف طرحتها على نصف وجهها ، ولكن العين
الوحيدة التي وقع نظره عليها كبيرة واسعة . متلفتة ، تمجوب ما حولها
في لحظة ، وتفهم التيارات الموجهة إليها في غمضة .

وتربص جاسر إلى أن وافقه يوم خرج فيه إسماعيل مبكراً إلى
الغيظ . ودخل الدار فوجدها بجانب الفرن . شفته السفلى متضخمة قد
تدلت ، وعيناه جشعتان :

(١) الزرع في الحقول قبل جنيه .

— « صبحت بالخير يا نرجس .

— صبحك الله بالخير .. ابن عمك نويه طالع للغيط .

الحوش «ماوى يكشفه الخيران. فاتجهت نرجس إلى غرفة صغيرة منحدرية ودخلتها ، فجاء جاسر ووقف على بابها . لم ير في مبدأ الأمر شيئاً ، ثم اتضح له بعد وقت حبل عليه ملابس نسائية عديدة كلها في ألوان مبهرجة ، تزيئها دنثلا وشرائط وتطريز وزركشة .

وقفت نرجس تنظر إليه . هو موقف مناجزة وقياس قوة بقوة . فهي أبعد ما تكون عن القروية الرعديدة التي لا تخلو مع رجل إلا وملائت رأسها فكرة واحدة : أنها عرضة لهجومه ، وأن انتصاره عليها لا يتوقف على إرادتها ، بل على الظروف . فلو كانت ملائمة له خيم عليها جو من التسليم والعجز ، وقد تناضل قليلا ولكنها تذهب دائماً بالخضوع ، وأغلب الأمر أنها تنسى نفسها وتشترك في النهاية فيما أكرهت عليه . فهي تعيش طول عمرها ونظرها لنفسها أنها مطلقاً شهوة ، لا يربطها بالرجل إلا قانون واحد : أن تحرك — من بعد — من شهوته دائماً بحيث لا تحبو لها نار . لا تقدم ، ولكن إذا رغب ، عليها أن تعطى . وكان وجه جاسر أدكن اللون ، يفيض من عينيه خبث غير جبان .

— « يعنى غبت يا نرجس في السوق السبت اللي فات ! ! »

لم يكن استفهاماً ، بل لهجة انتصار تحبها تهديد ..

— « عبال ما بيعت الفروج . . »

وأقبلت مرتبكة على ملابسها تطويها فهي تعلم أن تطلع جاسر
لهذه الأثواب سيورطها ، على أن أحداً من أهل البلد لم ير هذه الملابس .
حتى ولا أحب جيرانها إليها

وضحك جاسر بهلوه وكأنه يهمس لنفسه

— « والله إسماعيل متنى !! »

وجلست نرجس تصف الملابس في صندوق أحمر . . هي
ثروة لامرأة لا تبدو في الطرق ، ولا يراها الناس إلا في جلاب
أسود يهبط إلى قلميها ، أبيض الذيل يكنس التراب ، فنرجس تموت
على ثوب جديد ، لا تفرط في جلابية مهما قدمت أغلب هذه الملابس
من أيام زواجها في بلدها (موش)

نزل إسماعيل بهذا البلد بعد أن ترك السلطة (١) ، يعمل لدى أحد
المقاولين ووصله عن نرجس — وكانت إحدى جيرانه — أخبار
خلاعتها ، وطمع أن يتزوج من بحراوية مثلها فهو بعد تجواله في
مصر والشام لا يقنع بامرأة من بلده في هذا الوقت جاءه تعويض
السلطة ، وأخذ يصرف الجنيه وراء الجنيه حتى استلقت نظرها .
فتحايلت على زوجها إلى أن طلقها واندلقت على إسماعيل وقد بهرتها
ثروته . تزوجته ، ولم تلبث يدها أن نفقت جيوبة في شراء ملابس من
كل صنف ولون وانتهى العمل ونفدت التعويض ، فعاد إسماعيل لبني

(١) لفظ كان يطلق على الإدارة العسكرية البريطانية التي كانت تصيد

الفلحين لتجنيدهم في فيلق العمال في الحرب العالمية الأولى .

شقيـر يـرتـقـى من إيجـار فدائـن ، و يعـيش عـيشـة فـلاح لا يعـرف النـقود
إلا و قت المـحـصـول

في أول الأمر لم تنقطع شكاية البحراوية من غربتها وعدم قدرتها
تحمل الفاقة التي وجلت نفسها فيها فاسترضاهـا إسماعيل بجهدـه ،
و حرم نفسه من كل شئ ليجد ما تشري به « الكستور » و « البرنسي
عزـنـز » (١) و جاءت سنوات خاسرة ردت إسماعيل فلاحاً لا يجد
سوى جلبابه الأزرق يعيش صـلـره و يرقع ظهره مرات . وعاشت
زوجته بصـندوقها ، لا تتنازل عن مطعمها أن يزيد ويفتنى . توهمه
أنها تشتري بعض ما يراه من ثمن ما تبيعه من بيض دجاج تربيـه

والحقيقة ، وهى البحراوية المحربة ، كانت لأجل هذا الصندوق
تفرط فى نفسها بمنفلوط يوم السوق لأحد مشايخ الخضر . وتوصلت
على يديه ، وارتقت إلى معرفة بعض شباب الموظفين ولأجلهم كانت
إذا خرجت تـدس فى قـعـرقفتها — تحت البيض وربطة الكتاكتيت الجلباب
الذى يروقها بعضهم يقنع به وبعضهم تدفعه الحاجة للمرأة ،
ويأنف من ثيابها وقدميها . فيحميها ويلبسها من ملابس الرجال .

وأتقنت البحراوية دورها ، فهى تباعد ما بين جريمتها وبلدها ،
وتتصل بوسط ليس من الفلاحين . ولكن الفحش لا ينكفى عليه
ماجور ، وفاحت رائحة سيرتها ووصلت فى بلادها إلى أنوف خلقت
تلشم الجو .

(١) نوع من الـقمـشة الـسـائـية الـمـصـنـوعة .

وخرجت نرجس من الغرفة ، فأمسك جاسر بيدها وأراد أن يدفعها بجسمه ويدخلها الغرفة ، ولكنها انفلتت منه وكرت إلى الفرون فتبعها جاسر ومال عليها يقول :
— « حرام عليك .. أنا بقي لي خمستاشر سنة .. »

واستند على الجدار ، وشعر بشيء يجذبه للأرض ، تنفسه سريع وعيناه مشتعلتان . استيقظ فيه وحش طال رقاده ، فلما هم يقوم لم تسعفه قوائمه . هو هائج تجمعت قوته فجأة ، ولكن لا يزال في (دوخة) اليقظة .

وجلس جاسر القرفصاء .. وجسمه كله يرتعش .. ثم مالت رأسه وضمها بين ركبتيه يدين متصلتين .. وتملكته هزة متكررة .
نوبة تشنج صرخته . . .

أسرعت نرجس للزير ، يلاحقها من جاسر شخير يلمسها في أذنها ويتسرب إلى أعصابها . وعادت إليه تهم بصب الماء على وجهه .. ولكنها عدلت .. لا يزال هذا الشخير يأسرهما لا يعلم أحد ما الذي أثار في ذهنها .. لعلها ذكريات حوادث قديمة .. كانت فيها عبدة قن (١) لحسمها .. في أول شبابه كانت تسكر في بعض الأحيان من عرق البلح وتنسى نفسها . وعند اليقظة تحس بأثر مجهود صوتي في حلقها ..

ألقت الماء على وجهة فشق .. ورفع رأسه ، فاذا ببصره يقع على عينيْن كلها خضوع واستسلام . ربما سحرها ما رآته من القوة

(١) العبد إذا ملك هو وأبواه يستوى ليه الاثنان والجمع والمؤنث .

تنفجر وتصرع رجلا. وربما كان ما، أنه في حالة جاسر من رغبة صادقة ملحة .. من أجلها هي .. ولكن لا هذا ولا ذلك إن هو إلا قدر محتوم يهبط على الخلائق ، في حواشيه حوادث تسمى مرة مصادفات ومرة موجبات ، وما هي إلا نغمة من نغمات الكون في دورانه .. ليس للإنسان فيها إلا ما للشقب في صغير الناي .

وقام إليها ، وماتت يده على معصمها . جرها معه . لا يزال محني الظهر ، خطواته سريعة ، وأغرب شيء فيها أنها قصيرة ، شيء مخي يشد قدميه الواحدة إلى الأخرى ..
وسترهما ظلام الغرفة .

. . .

تغيرت حياة جاسر . هو منذ عام ينام إلى الضحى . ويقضى سحابة النهار بدكان خليل . لم يزر أبو فودة . فغياهب السجن قطعت فيه عرقاً يربط الرجل بمنبته . وهو — بعد هذا السجن الطويل — عن العمل عزوف . يود لو تظل حياته كلها حرية .

لكن نرجس أشعلته ، رده فربها إلى ماضيها ، وأزال عنه نقاهة السجن . وإذا به في اليوم التالي لا اجتماعهما يخرج من مسكنه مع الفجر ويترك البلد عن يساره ، ويجد في سيره كأنه في يوم من أيام شبابه .. يسرع كماداته كل صباح ليلحق المعدي . خمس عشرة سنة مرت كحلم ليلة ١١ الهوة التي فغرت فاما في حياته لم تقو على زمن له من القفز ما يصل بين ضفتي أوسع الشفارات .

ليس فى الطريق مزارع ، وكل ما حوله أرض فضاء رملية
تغوص فيها قدماء الثقيلتان ، ويجاهد بهما - وهو مسرع - يساعدهما
بحركة من كتفيه ...

بعد برهة وقف ذاهلا ... لم يبق بينه وبين النيل سوى خطوات
قليلة ، مع أنه يذكر أنه كان يصل للنيل بعد سير طويل .

وقت شبابه كانت الموردة (١) تقرب من البلد أو تباعد عنها بمسافات
لم يلاحظها جاسر ، لأنه ليس فلاحاً تهمة القصبة والشبر ، بل لطول
مجاورته للنيل وتعوده على تصارييف هذا المخلوق العجيب ، كحارس
الأسد : يسمع أخفت همس المتفرجين عن البقشيش ، ولا تحس
أذناه شيئاً إذا زار الوحش من على كتفه ..

ولكنه فى هذا اليوم لم يتمالك نفسه من الاندهاش . زالت
سطوة العادة وتحجر الفكرة أمام قوة النيل . فى خمس عشرة سنة
أكل من بنى شقير مسافة رحبية ، كان جاسر يمشيها فى أكثر
من نصف ساعة .

وأشرف على الموردة والشمس لما تشرق . على بعد « كوشة »
جير تحترق ويظللها الدخان .. أمامه قلوغ بعض المراكب يسمع ضوضاء
لجالسين فيها .. ووقف جاسر على مرتفع من الجسر . للريح صغير ،
وللنيل تحته دمدمة خفيفة .. هو فى عز فيضانه ، يطل عليه كالشبح
ناشئ من طينه . الطبيعة سواء فى الاثنين ، ليست الشهوة قاصرة على
الحى .. كلاهما يزرح تحت عبء فورة واحدة ...

(١) ميناء القرية على النهر

فليس أدل على الشهوة من النيل وقت الفيضان . هو طول العام
طفل نحيل تحمله مصر حرصاً على اليدين ، شفتاها على شفثيه ،
من رحيق فمه تعيش . ينتهى العام وئدى مصر قد جف . فيه لهيب كله
نداء للارتواء . وللطبيعة انقلابات لا مقياس لقوتها ، فلا يأتى
الميعاد حتى تنتفض مصر . تحس الرشقة تنقلب قبلة حارة تنفجر بها
شهوات حبشية تتجمع طول السنة . ويقفز الطفل من بين يديها فإذا
هو عملاق يده تشد شعرها . ويد نهصر خصرها ، ثم يطويها تحته
فتغيب . كساؤه لها من ماء طحينى ، له فى وسط الوادى هدير ،
وعلى شفثيه رفرقة . ويرتوى فى جوف مصر كل شق ، وتحيا كل
عين ، ويغور من البلايص ماؤها العفن المدود .

لا ترى قوة النيل فى الدلتا .. هو لا يجمد حريرته إلا مع الفيضان ،
فإذا تخطاها وراء القناطر شعر باللجام فى فمه .. الجسور يجانبية الغمامة
تحيط بعينى الفرس ، يركبه كل بلد شوطاً ويسلمه لمن بعده ..
يقرب من البحر وهو شيخ مرت عليه آلاف السنين ، يجرى شوطاً
واحداً لا يتغير حتى هد الملل والتعب قواه . تنازل عن نضاله
مع الأرض ، فى مجراه المرسوم يجرى ، هو الذى طالما تقوى وشق ،
أو تحايل ولف ، يخلق الجزائر ، ويبلغ البحيرات ، تملأ حلقه سدود
من كثيف النبات فلا يغص ، وتخدعه مستنقعات فى التيه نهايتها
فلا يضل ..

كل هذا كذب .. فى الصعيد يثبت النيل أنه رغم كل هذا لا يزال
شاباً مفتوناً بنفسه وبقوته .. ليست آلاف الدوامات إلا من دمه الفائز .
له فى كل موردة يد تغازل الفتيات . بين كل حين وآخر تقتنص
فريسة لا تشبع لهما .. للشواطىء منه عبث الجبار .. وها هو
مع بنى شقير ، فى سنة يمنحها أرضاً خصبة ، وفى سنة يسترد هديته
ومعها أجراها مضاعفاً .. فى خمس عشرة سنة أغار على أرضها
يأكل منها كالمفجوع حتى اقتربت الموردة من البلد للدرجة التى
أذهلت جاسر .

ولفح وجهه ريح رطيب ، فامتلات رثاه وزاد تنفسه عمقا ،
وفصل جسمه عن بهمة الليل بصيص من الضوء الأحمر يبرز من وراء
الجبل ، رمى له على الأرض ظلا طويلا ، وعلت قامته ، ووقف
لحظة يحرق فى أبو فودة . ثم هبط حيث المراكب .

فى طريقه إلى المعديّة ألقى جاسر السلام على رجلين جالسين على
الأرض ، ولما تبين أن أحدهما هو شعلان صاحى أحد مستأجرى محاجر
الحكومة ، كر راجعاً وجلس أمامهما ..

— « ياعم شعلان ، أنا عاوز أرجع للشغل ، خلينى وياك .
أنت أحسن من غيرك وطيب .

— أمال انت معدى لمين ؟

— أنا خارج لسه على باب الله .. والحمد لله الى قابلتك .

— طيب روح النهاردة اشتغل فى نمرة ٦ ، ولما تشوف شغللت

الحساب يجمع . أنت ما معكش عدة ؟ أنا عارف . قولهم هناك يلوك
العدة اللي سابها الواد على . »

وقام حاسر يلحق المعدية فالتفت شعلان لزميله يقول . :

— « دا حجار كويس ويعرف الشغل .

— مين ده ؟

— آه .. أنت صحيح ما تعرفوش . »

وبدا شعلان يقص قصة جاسر . استمع لها عبد المسيح بهلواء ،
لا يلفظ بحرف ولما انتهى أقبل على حجر صغير في الأرض وأخذ
يلعب به .

عبد المسيح — خفير الحجر النظامي

عبد المسيح — خفير الحجر النظامي — هو صاحب الطربوش
الوحيد في الجبل ، يرى فيه كالغريب الضال . جاء لوظيفته بعد
أن ترك خدمة الجيش تواء . لم ير محجر طوال حياته ، ولم يعاشر
حجاراً من قبل ، ورغم ذلك — ورغم أنه غريب عن البلد ، وديانته
تخالف أغلبية سكان الجبل — فإنه استطاع بعد وقت وجيز أن يفهم أسرار
المحجر ، وأنواع الحجر ، ودقائق العمل ، وأشخاص الحجارة ،
للصوص منهم والأشراف ، بل عرف كيف يكسب صاحب كل
محجر ، وكم يبلغ ربحه . يأتيهم مع الصباح المبكر في يده البندقية ،
يجول هنا وهناك فيفهم السرقات التي جرت في غيابه من محاجر
الحكومة . لم يشتك للمركز مرة واحدة بل يمكن أن يصل إلى غرضه

يضرب رجلا برجل ، ومصلحة بمصلحة ، فقلت حوادث السرقات
وهذا الجبل عن ذى قبل . وربطه مع العمال صداقة ، هي من جانبهم
مشوبة باحترام لا يمنحونه الا لمن يعلمون أن نفسه لا تقل عن نفوسهم
صلاية .. وقال شعلان :

« ما حبش لما تسهم .. قلت كام مرة قول اللى فى فكرك
ولا تخبيش .

« أخبى على إيه ؟ أنت غلطت .. الراجل ده ما عدش يفلح ،
رح يتعبك فى الشغل . خمستاشر سنة سجن ! مين عارف ح يعلم
الحجارة إيه من اللى اتعلمه هناك .

— انت عارف (الرى) مستعجلنى ، وتو ما لقته ...
تركه زميله وقام .. الحديث لم يعجبه .

...

تحايلت نرجس على التهرب من جاسر ، فهي تخشى
افتضاحها فى البلد ، وخسرانها أقوى سائر لها : زوجاً غافلاً . على أن
يوم السوق ثغرة فى تحصنها لا تستطيع سدها . فمغامرات كل
تاجرة تنتهى حتماً إلى عادة صلبة تدخل برنامج حياتها ، فتؤديها بلا
تفكير كأكلها وشربها .

فى منفلوط ، سوقاً بعد سوق لاحقها جاسر وهو هائج مغيط .
فليس أكثر تمزيقاً للقلب وبعثاً للغيرة من عشق امرأة تصد فى حين
أنها مبدولة للكثير . وزاده تعلقاً بها أن ذهنه ، فى فورته الفجائية .

وجد من هذه المرأة وعوده قواه ، شعوراً لا يقدم أحد شقيقه إلا مع الآخر ، وأصبح كالحاموسة العتيدة يكاد يضرها اللبن في ضرعها ولا تدبر به إلا لحالب معين .

وجدها أمام بائع يعصر على صدره يدها ليلبسها « خواثش » زجاجية ضخمة مبرقشة ، فجاء إلى جانبها ودفع لها الثمن ، فلم تمنع . — « إذا كان نفسك في حاجة قوليلي .. ربنا محزن على دله قتي ، وأشيتي معلن .

— يا جاسر سيني في حالي ما تخربش على ..
— انت الي ما تخربش على .. أخرتها أنا الي ح ! أضيع عمري عليك .. شوفي .. لو تكوني إنت مين ، وميها عملت ، أنا مش ح أسيلك . فهمتي ؟ »

ظهرت الحيرة على وجهها ، فهي بعد تفريطها الأول بين أن تداوم أو تقاوم تخشى لسان جاسر ، وهو يعلم سرها ، أن يجري باسمها في أنحاء البلد . كل خوفها أن تشهر سيرتها ، ولم تفكر لحظة في زوجها . فاهتمامها بإسماعيل يحى منذ أن ضاعت منه الإجارة (١) ، وأصبح أجرياً بالطورية ، (٢) يقضي أكثر الأيام عاطلاً ، لا شغل له سوى النوم فوق الفرن . يوم وراء يوم وهو في خمبول لا يسأل إلا عن أكله . لا ينقصه إلا أن يتكلم ويقول إنه فاهم . وموافق .. مادامت من وراء سعيها ستنتفي عليه .

(١) حقه في استئجار أرض كان يزرعها .

(٢) اسم الناس في الصعيد .

ومتى هبط الزوج إلى هذه الدركة ، أصبح إصبعاً يشير لا درعاً
يسر ، ولكنه - على الأقل - ينفع الآن حجة تهرب بها .
- « أنت عارف إسماعيل بارك في البيت .

- إسماعيل مين ذا اللى مالى عينك ؟ قولى لىنى اللى مش عاوزه »
هل تقطع الخيط وتواجه الفضيحة ؟ لم يكن مقصدها إلا أن
تطوح بجاسر :

- « أهو شفلك شغله فيه » .

ثم افترقا . . ولم تخط خطوتين حتى أشرق عليها إدراك غريب ،
كانت قلقة لسان ، ولكن هل فهمها بمعنى آخر ؟ وتملكها اضطراب
شديد لم تعهده من قبل ، وبدأت خطواتها تسرع على غفلة منها .

فليفر الإثنين معاً .. وماذا يهمها .. لفت رأسها فجأة روح
من عدم المبالاة و « ضرب الدنيا طبنجة » ، هى امرأة تتاجر بعرضها
وجدت نفسها فى ركن .

ولكن البعراوية غير سهلة .. وليس كل تفكيرها سليماً ..
ففى بعض الأحيان تقوم بنفسها نزعات من الشر لم تتح لها الظروف
أن تتعرف مداها .. وكأنها غاظها أن يلعب بها ولا تساهم ، فإذا
بها تكرر راجعة تبحث عن جاسر ، لحقته فى الطريق ولمست كتفه .

- « إذا كان كده .. أحسن تعزل من المنامة اللى حلدانا ..
شوفلك حنة غيرها .

وتلاقي النظران ثم ولت مسرعة

وسار جاسر بتمهل في خطواته . كان غيرواثق من فهمه ، فإذا بهذه اللمعة السريعة تبدد شكوكه .. وجعلته يدرك ، لا الذي تقصد نرجس بابتعاده عن جيرتها ، بل أنارت له طريقاً واضحاً يسهل عليه بعد ذلك الوصول لنهايته .. القروية هي المدبرة ، وخريج السجون تبع ! وكان في حاجة إلى التفكير في هدوء . فأخذ طريقه إلى قهوة يعرفها في نقطة المومسات .. وعلى دكة خشبية جلس ، تفوح في الجورائحة تخمر شديد من بوظة (١) مجاورة ، وتصل إليه نغمات رقص على مزمار وطبلة ، وأمامه عدة نسوة يفترشن الأرض تحت ظل شجرة على حافة الجسر . .

ولكن جاسر ليس هناك .. ترك إسماعيل وأخذ يفكر في نرجس عندما يحوزها لن تجد فيه زوجاً « نعمة » كإسماعيل . في أول لياليه سيسويها بضرب موجع ، لنفهم أنه من عينة أخرى لا تحتل اللعب على الذقون .. سيحبسها في الدار ويقفل عليها بالفتاح .. وشدت يده بغضب على جوزة التمباك .. وتكررت نفخاته ، يجاوبها الماء بكركرته ، وغاب في تفكير .. على يديه دم رجل ، ولكنه لم يقتله إلا في لحظة غضب دون أن يعي لنفسه . أما الآن ، بعد خمس عشرة سنة في السجن ، فهو قادر على أن يصنع المصيدة ويستهوئ فريسته إليها .. ولكن مشروعه يحتاج للصبر . سيروض

(١) مكان حرب البوطة ، وهي مجيئة مشر مشكر .

نفسه عليه . قصة يذكرها الآن لأحد زملائه في طرة .. قتل له ابن في ريعان شبابه في جمعة طلبه للجهادية ، ولم يكن لغريمه ذكر يثار منه سوى صبي يلعب ، فصبر عليه ، إلى أن جاء ميعاد فرزه ، فرماه بالرصاص .

هذا هو الصبر .

...

وأثبتت الأيام أن عبد المسيح على حق . فالحيوية التي استيقظت في جاسر جعلته لا يستطيع الصبر على معيشة الحجار ، ينكفيء على عمل واحد من الفجر إلى المغرب . وعلى مهل بدأ يقلل من عمله ، ويتداخل أكثر فأكثر في إدارة الحجر . يوماً يفرق بين عاملين ملتحمين ، ويوماً يحمر عينه لمراكبي يعاكسهم في الشحن . ولسابقة خبرته في الحجر ، وفي طرة ، لم تحب له نصيحة واحدة . ولم يمض زمن طويل حتى أصبح من جديد ، رغم غيابه ، مرجع العمال جميعاً ، يحترمونه وينصتون لرأيه .

وأنعمش شعلان عن هذه الحركات عينه . هو جم المشاعل ، كثير التغيب عن الحجر ، ووجود رجل مثل جاسر يوفر عليه وقتاً يضيع في سياسة منازعات عديدة عقدتها لا تحل إلا إذا جاء ورأى وحكم . وانتهى الأمر بجاسر إلى أن أصبح ريساً للمحجر نمرة ٦ .

في ليلة جلس جاسر في دكان خليل يتحدث بصوت مرتفع ويضاحك الحلاس ، ويطلب لهم على حسابه دوراً من الشاي .. ولما جاءت الأكواب التفت إليهم يقول :

— « يا ولاد باركولى .. النهاردة قريت الفاتحة فى الجبل مع
حسين رمضان يجوزنى بنته ، حكايه زى الحدوته .. أعمل إيه ؟ عاوز
أجوز من يوم ما رجعت . رزقى دلوقتى متسع والحمد لله .. ومن يوم
ما (عزلت) عن ابن خالى إسماعيل لقبل البلد ، وأنا مش متهنى
ع اللقمة ، عاوز لى مرة نخدمنى .. »

ولما ترك القهوة دار حديث الموجودين عنه .. كيف صار الآن
فى نعمة بيعثر لقوده ، ويشترى قدر عزى البلح ، ويجهز عليه فى
يومين . . .

— « والله يقوم بجميل إسماعيل الأول .. الراجل شوية شوية
ح يسف التراب ، وأولى نقرش من قريه .. »

— عشان تصرفه البحر اوية على كحلها ؟

— إزاي ؟ أنا سمعت أنه خده وياه للجبل وشاف له شغله هناك ...

— حقيقى .. امبارح شايفهم الاتنين معدين سوا ..

— إسماعيل من ساعة ما سافر للسلطة وساب طينه ، ماعدش
يفلح . . .

— صحيح . . . هو يعرف إيه فى شغل الحجر . . . »

وهذا ما قاله إسماعيل من قبل ، ولكن جاسر طمأنه وأفهمه انه
لن يعمل إلا فى نقل بعض الأحجار من حافة الماء للمركب . بين
لأثنين خطوات ، سيكون معه يساعده ، ثلاثة قروقرى يومئذ . . .

ولإسماعيل — على رأى بلدياته — فلاح خائب ، لا تربطه بالأرض
ما يربط باقي الفلاحين ، يموتون ولا يفارقونها ، وساقه الجوع إلى
الجبل مرعماً وراءه تحريض نرجس . .

— « ليه ما تروحش . . انت مش راجل زى الرجالة ؟ »

سار لإسماعيل إلى الموردة ونزل فى المعديّة كسير القلب ، أمامه
على الضعفه الأخرى محجر أبو فودة غير واضح ، فلا تزال الشمس وراءه
ولكن بعض الأصوات يقدفها الهواء متفرقة من الجبل إلى أذنيه ..
كلها وقع الحديد على الحجر .. ولم تتوسط المعديّة النيل حتى استعاذ
المراكبي من الريح . وطلب من الله المعونة لأصحاب المراكب الذين
سيسوقهم سوء الحظ للمرور فى هذا اليوم . .

لا يجهل مراكبي واحد يحب الصعيد اسم أبو فودة . . إذا
دنا منه توترت أعصابه وزاد صراخه ، وهم إلى قلوعه يربطها . .
فإذا جاوزه حمد الله وجلس يغنى إن كان شاباً ، أو يقضم من لقمة
و « يربش » بعينه فى نور النهار ، إن كان شيخاً . . لا مأمّن لأبو
فودة ، تحس المراكب أمامه أن الجبل واقف لها بالمرصاد كالشيطان
ينفخ عليها ريحاً خبيثة تملأ القلوع وتميلها للناء . . بعضهم يعلل السبب
بأن الهواء يضرب الجبل فيرتد فى دوامة خفية تهبط على القلوع فتصرعها
بحراً . . ولكن المراكبية كلهم يعتقدون أن فى أبو فودة شيئاً مرصوداً
من القدم يدفع بالمراكب لحثفها ، لاشأن للهواء أو الريح . فكم من
مركب قاربته وقلوعها ترفرف ، ليس فى الجو نسمة ، فإذا جاءت .

تحتة انتفخ القلع وترنح المركب من ضربة خفية ، وانقلب ظهرها فوق الماء . .

وجلس إسماعيل يستمع لهذه الأحاديث فتملأ قلبه سخطاً ، وحمل هم المعديّة تنتظره كل يوم صباحاً ومساءً . ثم تجاوزت المعديّة وسط النيل ، وبدأت الشمس تعلو رأس الجبل وتلقى أشعتها على سفحه المواجه للنيل ، فظهر الحجر أبيض ناصع اللون يرتد عنه الضوء في بهرة ووهج . . وتبين إسماعيل مصدر الأصوات التي وصلته وهو على الشاطئ . . كل الجبل مرشوق برجال معلقين على سفحه مربوطين من وسطهم بالحبال . في يدهم حديد يضربون به الجبل ، ويرتد الصدى من كل النواحي ، بعضهم يغنى وهو يرق ، وبعضهم منهمك في عمله ، لا تتأخر ضربة عن ميعادها الموزون .

هي أول مرة يعدى فيها . كان يظن طول عمره أن الجبل بعيد عن الماء بمسافة ، ولكنه هذه المرة رأى كيف يلطم الماء الحجر لطماً . بعض الأحجار المتناثرة غرق في الماء لنصفها كيف ينبت من الماء مثل هذا الصخر قد يبدو كأن النيل راعع أمام أبو فودة يغسل له قدميه ولكن دمدمة التيار يضرب الحجر ، عداوة صريحة بين القوتين . . النزاع طويل . . منذ القدم ، فليس الجبل من طينة شواطئ الوادي . . عناصر من الطبيعة متكافئة ، ينسل من بينها مخلوق ضئيل . إذا وقف على سفح الجبل تبينت حقارته ، ولكنه الأقوى ، يركب ظهر أحد الخصمين ويعلو هامة الثاني بيده من الحديد والنار ما فت

فى دروع الجبل . . يقطع من لحمه كل يوم ولا تمتلىء عينه حتى
أصبح الجبل كجاموسة الفلاح ، من طول جوعها ، بارزة العظام على
الجنبين ، بينها بطن مهضومة .

وفجأة دوى فى الجو صوت مرتفع .

— وردة . . . وردة (١) . . .

تناثر ثلثة العمال الذين ينقلون الأحجار أمام الموردة وجرى
إسماعيل مرتبكاً وراءهم . وخطف بصره وسط السفح لهيب من نار
وسط دخان أسود ، يعقبه سحاب أبيض . . وفى اللحظة عينها ملاً
أذنية دوى مكتوم هلع له قلبه ، وتدفقت أكوام الحجر كالطرر ،
تتلحرج . . تتلحرج . . الكبير منها يصل إلى الماء . والصغير قد يقف فى
منتصف الطريق .

والتفت إسماعيل يسأل أحد الحجارة وهو يشير إلى حجر كبير
استقر على بعد من الموردة :

— « ودا ح تشيلوه إزاي

فأجابه العامل وهو يضحك .

— « ما تخافش . . دا ح نكسره باللغم كام حته . .

شعر من هذه الضحكة أنه سيعيش غريباً عن الجبل والعمال ،
كلهم قساة لا شهوة لهم فى التحدث وقت الشغل ، وأغرب شىء فيهم
أنهم من سحنة واحدة لا يفارقها العثير (٢) . . أيديهم غليظة ،

(١) كلمة تحذير معرفة عن الكلمة الإيطالية أفريجي بمعنى احترس وكانت

شائعة على السنة الحوذية فى الاسكندرية بنفس المعنى .

(٢) التراب .

ظهورهم محنية، هل تفرعوا جميعاً من أصل واحد؟ أم هو الجبل لا يستهوى إلا طرازاً خاصاً؟

واستمر إسماعيل في نقل الحجارة أياماً متعددة حتى ألف الجبل والعمال. واعتادت أذنه دوى اللغم وترجيع الصدى، وأصبح يفهم الألفاظ التي يتباد لها زملاؤه، ولكنه ظل رغم هذا في مرتبة الصبيان أجراً، لا يتعدى عمله نقل الحجارة من مكانه إلى مراكب الشحن.

في فترة من فترات سخطه، جاءه جاسر يفهمه أنه لو كان غيره مكانه لتشجع قليلاً وترك هذا العمل البسيط إلى ما هو أربح.. وأخذته إلى سفح الجبل وأراه علامة.. هنا يراد فتح ثقب للغم جديد.. ما عليه إلا أن يكون معه المدق - عود غليظ من الحديد رأسه مدببة، والمعلقة صيخ طويل في نهايته كف صغير لتنظيف الثقوب - ويدق في الحجر إلى أن يستحدث به ثقباً مستقيماً طوله نصف متر تقريباً.. ليس يطلب منه شيء أكثر من هذا.. وعلى جاسر بعد ذلك ملؤه بالبارود وكبسه وإطلاق النار فيه.

لم يفلح إسماعيل في أول الأمر في إحداث الثقب. وهدل به جاسر عن هذا الموضع إلى غيره، ولكنه - بعد أيام - سار في عمله وأخذ يمر على الأمكنة التي يجدها فيها العلامة ويشغل.. هو إلى اليوم يعمل واقفاً على رجله.. بعد أيام وجد نفسه مضطراً لفتح ثقب في علامة تحت نتوء وسط سفح الجبل لا يستطيع الوصول إليه. وفهم لماذا يضطر العمال لربط أنفسهم في حبال تتدلى من صخور بارزة في أعلى الجبل..

ليهبطوا إلى أمكنة لا يتسنى لهم الصعود إليها. عن يسار المحجر بمسافة غير قصيرة ، طريق يؤدي إلى رأس الجبل. . من هذا الطريق يصلون للصخور البارزة ، ويدلى الحجار الجبل بعد عقد طرفه بأحد الصخور ثم يهبط عليه حتى يصل لعلامته ، فيربط حزاماً في وسطه بالجبل ويظل حر اليدين .

وتعلق إسماعيل بالجبل مراراً ، وجاسر يقود خطاه . . وأصبح لا يخشى موقفه بين السماء والنيل .

في النهار أبو فودة حركة وفرقة ودوى ، وفي الليل سكون وهواء يصفر . . في ليلة مظلمة في أوائل الشهر رأى أبو فودة جاسراً يعود إليه منفرداً في قارب صغير . . ثم يتحسس خطاه ويقفز من حجر إلى حجر . يحاول أن يصل لرأس الجبل من الطريق المرسوم ، ولكن رجليه — دائماً رجلاه — عاجزتان وحركتهما بطيئة ، فهو يسند نفسه كل حين وآخر بيده ، ويقف ينصت . في لحظة خيل إليه أن الظلان حوله تتحرك إذا ضربها الهواء ... وتمالك نفسه ، يسير مخني الظهر تنفسه مسموع . لقيه على رأس الجبل هواء بارد ، يهب على وجهه فلا يؤثر في الحمى التي تملك جسمه ، العرق يتصبب من جبينه ، ولسانه جاف ، ، ،

ووقف جاسر عند صخرة نائمة حولها جبل معقود ، ذيله الطويل يتدلى إلى سفح الجبل يكاد يصل إلى الماء . . تلمس موضع العقدة وشرع يزحزح الجبل إلى أن جاءت أمامه . وأخذ يعمل فيها يديه . . ثم أسنانه حتى فكها . .

كل الحجارة يفهمون في الحبال وطرق عقدها . . وكان جاسر أيام شبابه - أمهر العمال في اصطناع العقد ، له عقدة يحدثها بين - حبلين في غمضة ، ومع ذلك يكتفى أن يقع على طرفها ضغط يسير حتى تقوى وتصبح كوثاق الحديد . . ليس هذا كل ما يعرفه .. بل كان ماهراً أيضاً في اصطناع عقدة تظهر ملتوية ضخمة ، متداخلة ، لا يشك من يراها أنها تقاوم القناطير ، ثم يطلب من أحد الواقفين أن يجذب طرف الحبل على مهل ، فإذا بهاتفكك شيئاً فشيئاً ، وإذا بها أكبر الخدع .

أعاد جاسر لف الحبل على الصخرة ، وجلس يدين مرتعشتين يعقد الطرفين عقدة لن تدهش المتفرجين هذه المرة ، بل ستستند عليها روح معلقة بين السماء والماء ، وسط أكوام الحجارة التي لا تلبث إذا سقط عليها الجسم تلقفته بأسنانها ، تمزق أوصاله ، وتهشم رأسه فتاتاً . .

وعاد جاسر بقاربه وربطه حيث كان في مؤخرة مركب كبيرة محملة قللا وبلايص ، لحقها الليل أمام بنى شقير ، فركنت في الموردة ، وكان أهلها في نوم عميق ..

لم يغمض له جفن طول الليل . . جسمه يرتعش رعشه مكتومة .. الكلاب تعوى حوله ، وللديكه آذان كله نداء وتنبيه .

في الصباح ، بعد مياعده ، خرج من منزله لا فافا رأسه ومعظم وجهه في لاسة من الصوف ، يقول لكل من يسأله - وهو في خطو

المشلول — إنه مريض . بين جميعه هوة إذا أطلت عليها نفسه لم تر إلا خوفاً ورعباً يحدقان فيها هو مريض ضعيف ولكنه قبل كل شيء يريد من ربطة اللامسة أن يتخفى وجهه ويستر اصفراره واستقل المعديّة معه عدد من الحجارة المتأخرين ، جلس بينهم متخاذلاً ذاهلاً عما حوله المناظر التي تبصرها عياه تقع على مخ صدىء ، فلا يفهم منها شيئاً ..

وبدا أبو فودة يتضح . كل يوم له ألف لسان من معول حديد يصدّم به الحجر ولكنه الآن أخرس واجم .. وزاد من تساؤل ركاب المعديّة أنهم رأوا عند ما اقتربوا ، جمعاً من الحجارة يجرى من أعلى الجبل لأسفله . بعضهم يحرك ذراعيه ، وبعضهم يصرخ كالقرويين جميعاً إذا أرادوا لسماع صوتهم لبعيد ، في صرخة طويلة مموجة تنتهى بعويل .

وقفز الجمع فاندس بينهم جاسر .. تلقفهم العمال بالخير .. إسماعيل جاء كعادته ، وطلع للجبل وهبط على الجبل ليبدأ عمله ، وفجأة — وبدون سبب واضح — رأوه يهوى .. صرخ مرة واحدة ثم لم ينطق ... رقراق من الدم يسيل من طرف الفم على خده عين مسودة ، حاجبها مجروح ، وعين كبيرة جاحظة . . مر الرعب عليها وهو هارب فتلقفته منها يد الموت . . فهو فيها أسير مقيم .. وارتمى جاسر على البثرة يحضنها ويبكى .

— « آه . . آه يا ابن خالى » .

ونقلت البثرة — فى المعديّة ! — إلى بنى شقير ، يألف النيل منذ الفراعنة ترجع الميت من أولاده على ظهره .. فى الغرب المنازل ، وفى الشرق القبور . . ونزهته الوداع !

لوصول إلى عبد المسيح خبر موت إسماعيل ، فأسرع إلى محل
الحادثة ، وكان الحبل لا يزال موجودا فأخذه بين يديه يقلب فيه ..
يستمع للحديث حجار واقف وراءه .

— « هو لازم ما عرفش يعقله الحبل كويس .. ماتبتهاش بالحبل » .

فقام عبد المسيح ينصرف .. لم يلتفت للحجارة .. وكأنه يهمس
لنفسه لا يسمعه قوله :

— « له رب ... » .

ومرت أيام طويلة . . ورأى الشقراوية كيف يطلب جاسر من
حسين رمضان أن يحمله من « فائحة » ابنته ، لأنه لا يجد مفرأ من أن
يتزوج من أرملة ابن خاله . . المصيبة مصيبتها . . هي بحراوية ..
فارقت بلدها وأهلها . . وليس لها عائل في بني شقير .

وضمهما منزل واحد . . في لذة يعرفها أكثر الناس
هي عندهم شيء يأتي ويذهب ، وهي في نرجس وجاسر عنصر مقيم ..
وارتوى جسمه على الغذاء الحديد .. في أول الأمر أصابه ضعف
شديد ، ثم انقلب إلى سمنه ، اختفت معها عظمتا خده ، وانتفخ شداها
وظهر له كرش كبير . . وزاد إقباله على عرق البلح ، وكثر في
الحبل حديثه ، وبدأ العمال يتدمرون من محاولته ، في غير مناسبة ،
أن يتدخل في مصالحهم والسيطرة عليهم ، وهو كسل لا يقوم بعمل .

مر عليه شعلان ذات يوم وهو في الحجر ، وتعهد أمام العمال جميعا أن يؤنبه على بعض إهماله . . وهدده بإخراجه من عمله إن لم يعتبر . . لم يجاوبه جاسر إلا بكلمات متقطعة . . ثم انتظر حتى اختفى الرجل وعاد إلى عمله . . هو جالس عند حافة المساء على حجر ضخم في وسطه ثقب عميق ، بجانبه كيس بارود يتناول منه بحذر ويسكبه في الثقب . . ثم ضحك :

— « يعني عم شعلان فاكر رزقي في إيدته ؟ يعجبه أسيب الشغل وأروح نمرة ؟ أهما عاوزيني هناك . . »

وامتلاً الثقب إلى ثلثه . . فجاء جاسر بالقتيل وهو عصا من جريد مشبعة بمعجون البارود ، وركزه في الثقب وسط كوم البارود ، وتناول من تراب ناعم بجانبه حفنة وألقاها حول الفتيلة .

— « انت ياواد يا علوان — دقيت الحجر ده كويس ؟ أوع يكون فيه حصوه ؟ » .

جاءه الجواب من عامل معلق .

— « كله كويس . . أهو قدامك شوفه » .

ومد جاسر يده يكبس التراب حول الفتيلة . . ثم ترك الشغل ووقف : —

— « يبقى يشوف عم شعلان لما أسيبه الشغل يعيش إزاي ؟ »
ووصل التراب إلى حافة الحجر ، فأخذ جاسر عموداً قصيراً من الحديد وبدأ يكبس التراب بهدوء وبطء . . ثم تركه وعاد لحديثه من جديد . .

— « أنا ح أنخاف من إيه ؟ مش عارف ان نص عمرى راح فى السجن ؟ دنا رد اللومان » .

وضغط بالعمود مرات قليلة حول الفتيلة البارزة :

— « أوعوا بقا . . ورده . . ورده . . ورده يا واد يا محمود ، ورده يا حسين ، سيب الشغل دلوقتى يا عوض » . وأخرج من جيبه علبة كبريت . . وانحنى ظهره فوق الحجر . . ومال بوجهه على الفتيلة . . ثم أشعل العود ولمس بالنار عصا الحديد . . لم يسر اللهب بها . . لا يزال عود الكبريت مشتعل فى يده . . عيناه على رأس الفتيلة تراقبها . . واقتربت يده بالنار مرة أخرى . وفجأة قذف الحجر إلى وجهه فى دوى كز مجرة الوحش تراباً ولهباً وذنخاناً وباروداً محترقاً وغير محترق .. اختفى وجهه لحظة وسط اللحم . . ثم انقشع السحاب فإذا هو ملقى على الأرض . .

تجمع العمال عليه . . ليست الحادثة الأولى فى محجر أبو فودة . كم عامل قبله قاده سوء الحظ إلى إشعال لغم منفس وفقد روحه .. أو فقد شعره وجلده ، وسكن البارود غير المحترق فى وجهه فى علامات أشبه بالجلدى . . وكم عامل تفحم أنفه . . ولكن جاسر فقد عينيه . .

يعيش جاسر من إحسان الناس . . غير أنه لا يستطيع الابتعاد عن أبو فودة . فى الصباح المبكر يكون أول من يصل إلى المعديّة ..

إذا سمع صوت الحجارة مقبلين ، قلب يده فى الهواء يريد أن
يتشبث بواحد منهم . . كل يوم يعدى إلى المحجر . يرقط طول النهار
تحت سفح الجبل يستمع لأصوات المعاول ولغم البارود . . لا يزال لسانه
« زفرا » ، بل ربما زادت شتائم ولعناته . . يقبل لقمة « البتاو »
تعطى إليه ، لا يحمد ولا يشكر . . هو زميل احتمله الحجارة بينهم فى
عطف غير طائش أو ثرثار . . نصفه كرم ونصفه قسوة . كل من يحل
بالمحجر يأسره منظر هذا الرجل السمين ، وجهه مبقع حواجبه من جلد
وجروح ، عيناه كعيني البوم إذا أغمضهما . .

ووجد جاسر فى العصا ما يتوكأ عليه ويساعده فى خطوه . .
من كان يظن أن خطوة جاسر المترنحة وقدميه الثقيلتين نبوءة عجيبة
بعماه ؟ مشيته هى لم تتغير . . ولكنها لا تستثير الآن فيمن يراه
دهشة أو عجباً . . فليس أمامه إلا أعمى يتحسس لقدميه موضعاً . من
أين له أن يعلم أن هذه المشية « دمغة » لا تزول أرث سجن طويل
عاش فيه جاسر تربط رجله الواحدة بالأخرى سلسلة قصيرة . .
خمس عشرة سنة تتدفأ من حرارته . . هى عرق فى جسمه . . يكاد
يجرى فيها دمه X

X نشرت أبو فودة فى جريدة السياسة الأسبوعية ملحق العدد ٣٠٢٧

١٩٣٣/٢/٣ ، ص ١٤ ، ١٥ ملحق العدد ٣٠٥٧ ، ١٩٣٣/٣/١١ ، ص ٢٦ ، ٢٧

حياة لص

عندما انتظم حسنين ابراهيم في سلك الحفراء بالقاهرة كان فخر الطابور بقامته المرتفعة وصدره العريض وذراعيه القويتين وجبهته وهي ملساء تلمع حياة وشباباً . وامتاز فوق ذلك بجماله التي اكتسبها من قضاء لياليه منفرداً وسط الحقول لحراستها . وحبيه إلى رفقاته أنه ذو حديث حلو يدل على معلومات واسعة وذكاء طبيعي صقلته المدينة وأبرزته .

وازدادت قيمته لديهم وكثر إعجابهم به عندما أذاع بينهم أحد أصدقائه قصة حدثت بها حسنين في نشوة من نشوات الدهوى التي تدفع صاحبها إلى البوح بعاطفته فتغلبه وتغلب فيه حب التكتم

والانفراد . فعلموا أنه قروى نشأ بالريف وترى وسط حقوله ولولا
القدر لكان يرتدى اليوم بدل معطفه الخشن الأصفر جلباب الفلاح
الأزرق الملطخ الحائل اللون . ولكن يقضى طول يومه محي الظهر
فوق فأسه بدل أن يظل الآن منتصب القامة معتمداً على نبوته الطويل .
فأى شى غير القدر هو الذى يرمى بالمرأة فى طريق الرجل فتخرجه
من حياة إلى حياة أو يجعل منه شخصاً غير ما كان ! قصته إذن قصة امرأة
كانت مشهورة فى القرية بميلها إلى الرجال وقلة تورعها فى التحدث إليهم
ومقابلتهم وما لبثت أن انتقلت إلى البندر تحت ضغط الوسط الذى تعيش
فيه لترتق هناك من عرضها ... وهى نهاية محتومة لكل فتاة تسهين
بشرها فى الريف ، وإن هربت منها فإلى موت أكيد ؟

فهجرت الفتى قريته ورحلت إليها ، ثم ما لبثت أن جرت إلى العاصمة
فهوى معها حيث استمر عاطلاً زمناً غير قصير تلوق فيه فقر
المدينة على خلاف ما كان يعهده من فقر الريف . ففلاحو القرية فقراء
ولكن لا يمتاز بعضهم عن بعض . يسرون جميعاً من حقلهم إلى
دارهم كتفاً جنب كتف ، ولكنه فى المدينة فقير وسط أغنياء .
يقطع المسافات الطويلة سعياً على قدميه ليصل إلى أحقر سقف يظلل
إنساناً تحت سماء المدينة !

وظلت علاقته بالفتاة متصلة إلى أن أصابها شىء من الفتور .
ولو أن هذه الظروف أحاطت بغيره لا لتمس النجاة فى الرجوع
إلى قريته ولكنه آثر البقاء فى المدينة إشفاقاً من نخجل يزعم أنه يشعر به

إذا وجد نفسه مرة أخرى بين أهالي قريته وهم لا يعرفونه إلا بشهرته في متابعة فتاة من بلد إلى بلد . وهذا عذر متحل إذ لا شك في أن السبب الحقيقي هو أنه سقط تحت تأثير المدينة . وقد استهوته بأنوارها ورفاهيتها . ومن لا يلتمس له العذر . وقد انتقل من أبسط وسط وأنخسنه إلى مدينة يعتبر مجرد الوجود بها والسير في طرقاتها لذة وتنعماً . والمدينة للقروي كالخمر للشارب تسحره وتأسره . فينقلب عبداً ذليلاً لها ويضع تحت قدميها حياته الوديعه الهادئة ليستبدل بها حياة محمومة مضطربة ولكن تتابها بين حين وآخر نوبات سرور ! ولذلك قنع حسنين إبراهيم أن يكون خفياً يتناول أول كل شهر اثنين من الجنيحات لا تقيم له أوداً ولا نجيء بكفاف زوج وطفلين (وأى عجب في أن يعشق حسنين إبراهيم امرأة وهو مترح من أخرى .. أليست زوجته نوعاً من المتاع لا قيمة له ولا تدخل في حسابه ؟)

وكان من تأثير هذه الفئة أن أقر له زملاؤه بنوع من البطولة التي وإن كانوا ينكرونها جهاراً فهم يعجبون بها سراً ، ويتمنى أحدهم لو وقع له في حياته ما وقع للبطل . ومن هنا كان أكثرهم يستشيريه في أموره ويتنصحه برأيه .

مرت عليه شهور إلى أن كان دركه في شارع تجارى كبير . ولكنه شارع وطنى لا يلبث مؤذن العشاء أن يدعو الناس إلى الصلاة حتى يهرع أصحاب المحال التي به إلى تلبية ندائه ، فيغلقون أبوابها ،

فلذا قضوا الصلاة أتجهوا إلى منازلهم القرية وكل منهم يحمل شيئاً من مأكّل وفاكهة .

فلذا تقدم الليل أصبح الشارع مظلماً صامتاً لا حركة فيه . ترتعش في أرجائه أضواء المصابيح إذا ضربها الهواء فترقص معها على الجدران أشباح سوداء غريبة .

في وسط هذه الوحدة الموحشة قضى حسنين إبراهيم أياماً طويلة لا يشغله عمل واحد يستطيع أن يحرص فيه تفكيره لينجو بنفسه من قبضة . ملل يطحنه بقرنيه فيبعث إليه التأفف والسأم في عمله وحياته .

وكان الشارع لديه في أول الأمر شيئاً جديداً له بهجة كل جديد ولذته فشغل حسنين نفسه بدراسة الشارع دراسة دقيقة حتى ألفه وحفظه كما يحفظ المرتل أنشودة يتلوها عن ظهر قلب ولكن الاعتياد والتكرار أفقده كل لذة وسلباه اهتمامه فأصبحت حياته بالشارع عملاً يؤديه رغماً عنه وهو غائب الذهن غير مبالي أو مهتم به . ثم انتهى به السأم إلى أن اختار حجراً بالطريق يجلس عليه معظم الميل يسلي نفسه بتنظيف غطاء رأسه بكم معطفه ويقتل شارب به يمينا ويساراً ...

فكم من مرة قطع فيها الشارع سيراً وذهاباً وإياباً فاحصاً بنظره الأرض ، محدقاً في أبواب المنازل مخترعاً لأقفال المحال (حتى يطمئن على دركه) منصتاً للأصوات الهاتفة التي تخرج إليه من المنازل . ولقد كان يحدث أنه كان يقف أثناء سيره أو يسعى من أول الشارع إلى منزل ينصت بانتباه إلى ما يصدر عنه من أصوات ...

وبذلك أصبحت حياته جزءاً من حياة الشارع ، يعلم كم حفرة
تفسد استواء الطريق ، وموضع كل منها . اعتاد حسنين ابراهيم
أن ينتظر بشعف كل ليلة رجلاً يرجع إلى داره متأخراً ويجلس بجانب
النافذة والغرفة مظلمة يدخن لفافة التبغ وهو يحرق في السماء
فكانه بينه وبين هذا الرجل ميعاد في كل ليلة ...

وإذا وقف بأول الطريق علم وهو بمكانه أى المنازل ينبعث منها
صوت بكاء طفل صغير يصحبه صوت امرأة تغنى له وهى تضرب ظهره
ضربات تترن مع نغمتها وتسمع بجلاء من الشارع . وأصبح لا يهتم
عندما يسمع بعد منتصف كل ليلة صوت رجل مريض يتأوه ويتوجع
ولا لأصوات المشادة والعراك بين رجل وامرأة في منزل آخر .

وكم من مرة أبصت لطالب يستذكر دروسه في أول الليل
بصوت مرتفع حتى يأوى إلى فراشه بل أصبح ينظم أوقاته ويعلم بمروور
الزمن بمميزات أوجدها لنفسه ، فعلامته على أن منتصف الليل
قد مضى فتى قصير القامة يقبل إلى داره في خطوات بطيئة ، واضعاً
يديه في جيبي بنطلونه وحاملاً في تجويف ذراعه الأيسر رزمة ضخمة
من الجرائد يسير ولفافته في طرف فمه ، وطربوشه منحدر
فوق جبهته ، وعيناه باحثتان عن شئ ضائع منه في الأرض
ويدله على اقتراب الفجر صوت جرس المنبه يدق من أحد المنازل
فيسنقظ على صوته المزعج رجل يلبس قبقابه ثم يحول به في أنحاء

منزله ثم يبتدىء في تلاوة القرآن . وقلما كانت هذه المميزات والعلامات
تخطئ معه .

. . .

في ليلة من ليالى الشتاء الباردة التى يقر فيها الناس في بيوتهم
يتدفأون كان حسين ابراهيم كعادته بالشارع ، هو وحده الذى
لامأوى له من الأمطار الهائلة والرياح الهوجاء ! وكان من عادته
أن يتخذ من بروز بعض المنازل في الطريق سترأ له من رذاذ المطر .

في هذه الليلة وبعد انتصاف الليل بكثير لمح حسين ابراهيم شخصاً يأتي
من بعد تطوف برأسه هالة بيضاء يسير محنى الرأس والظهر وكأنه
جسد بلا ذراعين في مشية كشية الرجل فقد شيئاً يبحث عنه باهتمام
في الأرض دون أن يقف في سيره ، وكان هذا الشخص الغريب
يسير بجانب الجدار ويتسكع قليلاً بجانب أبواب المحال ، بل إنه وقف
مرة أمام أحد الأبواب وأطال ، وعندما اقترب من حسين ابراهيم
ورآه نشط في مشيته ، واستطاع حسين أن يراه ويتبينه فإذا الهالة
البيضاء (كوفية) بلفها الرجل حول رأسه ويغطي بها أذنيه وإذا
هو قد لف ذراعيه واضعاً كفيه تحت ابطيه وانكشيت رقبته فالت
رأسه إلى صدره من تأثير البرد وطلباً للدفء الذى لا يجلبه إليه ما يلبسه
من لباس رقيق : ولما حاذى الخفير التفت إليه وبصوت أجش كان
صاحبه لم يتكلم منذ مدة قال (سلام عليكم) ثم أرغم نفسه على
كحة ليسلك بها زوره ، فأجابه حسين بشيء من الريبة (سلام) على .

خلاف عاداته إذا رد التحية فإنه يقول (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته)
ثم تبعه بنظره متمهلاً حتى غاب الشخص عن نظره .

والواقع أن حسين إبراهيم عندما طالت مدته بالشارع اعتاد
أن يتفحص كل شخص جديد يمر أمامه ليجد لنفسه مجالا جديداً
تستريح عيناه بالنظر إليه وينشط فكره ويستفيق من رقاده وسأله .
اعتاد حسين إبراهيم أن يقصد إلى قهوة (حسن على) عصر كل يوم ليتناول
(فنجال قهوة) أو (كوبه شاي) وفي اليوم التالي اتخذ مكانه المعتاد
فإذا بجانبه شاب يلف رأسه بكوفية ... هو بعينه الذي لم يتنازل
حسين بالأمس أن يرد له التحية بمثلها ولا يزيد . ودار الحديث بينهما .
وشرب حسين إبراهيم الشاي (وجوزة تمباك حمى) على حسابه فربطتها
صداقة سريعة كالتى تنشأ عادة بين الجلاس في الحانات والمنتديات .
وكان الشاب حاول النكتة بحادثه عن النساء وعشيقاته وغزواته المتكررة
في المنازل فاعتقد حسين أنه (جدع) من فقية الحى الذين لا يهمهم
شئ ولا يقف في سبيل تنفيذ رغباتهم مانع من الموانع .

وتكررت مقابلتها كل ليلة . فتعرف حسين بجميع أصدقاء (عبده)
وشهرته (حماية) وهو لقب يتخذه لنفسه دلالة على أنه لا يخضع
لحكم البوليس المصرى استهزاء به . وتطرفت الصداقة إلى درجة أن
حسين كان يصحب عبده في زيارته لأصدقائه في منازلهم ويجهد
ألا تفوته فرصة يجتمع فيها به .

وعندما دخل حسين منزل (عبده) لأول مرة ذهل كثيراً لأنه
رآه على تفاهة أثاثه ، مزوداً بأصناف كثيرة من البضائع ، ورأى

فى غرفة (أثواب البقعة) - و (مقاطع الشاش) ومقاطف البن
وكيات كبيرة من السكر والصابون وأقراص الحبنة الرومى والفلمنك
وعلب الحلوى والشكلاتة ، وعدداً وفيراً من الساعات وصفائح
الزيت الصغيرة ، ثم لاحظ أن كل واحد من أصدقاء عبده يخرج
من الزيارة حاملاً صنفاً واحداً من هذه البضائع المكسرة لا يتعداه
مهما تكررت زيارته فأم أحمد الدلالة تأخذ معها القماش وأبو النجاء البقال
بجهة السيدة سكيئة يأخذ أصناف البقالة . أما الساعات فيأخذها شاب
من الدين يبيعون (لإنشا للجوابات . فوازير . حكايات . أغاني
وروايات) يسافر بها إلا بلاد الريف فى أيام المواسم والمولد .

أخذت هذه المناظر والتجارب تمر أمام عينيه ولكن حسنين كان
صامتا لا يرضى أن يصرح لنفسه باعتقاده فى مهنة هذا الصديق الحديد
بل استمر صامتا متردداً . وحينئذ أنه لا يعنيه من هذا الأمر شيء .
ولأنه على (بر خليص) إذ مادام أنه بعيد عن الشبهة . فلا يهمه إذا
كان (عبده) لصاً أم لا . ولذلك لم ينكص عن محادثة (عبده) فى
أصناف القطع الحديدية اللازمة لفتح الأبواب (إذ رآه يملك عدداً
وفيراً منها فأراه عبده الأصناف المختلفة ودله على أسمائها وكيفية
استعمالها وأخيراً أخبره عن الأشخاص الذين يبيعون له هذه الأشياء
كان حسنين يصغى إلى هذه التفاصيل بشغف وشوق وتنطبع ذكرى
الأحاديث فى ذهنه بقوة وتأثير .

وأخيراً لم يفته أن يلاحظ أن (عبده) ينحني فى ناحية من الغرفة

صنلوقاً صغيراً به (تذاكر صفراء) يستهلكها بسرعة ولاحظ أيضاً
أن أصناف البضائع تقل فتكثر التذاكر .

فإذا نفذ الكوكابين إمتلاء المنزل مرة أخرى بالبضائع !
النتيجة الطبيعية لمسلكه هذا أنه لم يدهش عندما سأله (عبده)
ذات مساء (هل تحضر معنا هذه الليلة ؟) ولم يكن هذا السؤال يخطر
على باله فصمت ثم (قال : لما نشوف) فتواعدا بالقهوة .
لم يدر نزاع كبير في نفس حسنين ابراهيم وكانت حاجته كحججه
السابقة أنه مادام سيذهب متفرجاً فلا خوف عليه .

فيذهب وهو في ملابسه العادية وكانت مأموريته
أن يقف بأول الطريق حتى ينتهي عبده ورفيق له من كسر باب محل
وسرقة ما به . وتم ذلك بكل سهولة ولأجل أن يكافئ (عبده)
الخفير على خدمته أعطاه قرص جبن فقبله (مادام أنه لم يسرقه هو
شخصياً) ثم كلفه أن يحمل الباقي من السكر والصابون إلى أبي النجا .
وفي طريقه إلى أبي النجا إنتهى به منطق كان يتعب رأسه قليلاً
إلى أن يعرج على منزله ، فيملأ خزانته من السكر والصابون ويذهب
بالباقى إلى أبي النجا وهو يقول سرّاً (ابن الكلب ! هو دافع فيه
فلوس . مادام حاجة بلاش !) .

حدث بعد ذلك أن انتقل حسنين ابراهيم إلى درك آخر تبع
قسم يبعد عن قسمه الأول . ولا بد لنا أن نقول هنا أنه أكثر أخيراً
من زيارته إلى عشيقته . وأطال في سهره وأسرف في شرب المسكر

حتى ركبته دين قليل دفعه كثيراً إلى التفكير . ولكن انتهى به الأمر إلى أن تقدم لرئيسه متمارصاً يطلب أجازة يوم فيسمح له بها . وعندما أقبل منتصف الليل سار حسنين إبراهيم متسللاً حذراً إلى أن وصل إلى شارع القديم الذي قضى فيه أياماً طويلة فعرفه حق المعرفة وحفظه عن ظهر قلب ، فعلم أقوى أفعاله وأضعفها ، وأوقات غفلة سكانه ويقظتهم . فخرج في حارة صغيرة ليس بها إلا مخزن واحد يعلم عن صاحبه حداثة عهده بالتجارة . وأخرج من جيبه طفاشة من الحديد (ولو بحثت عن الوقت الذي اشترى فيه الطفاشة علمت أنه اشتراها منذ أن ابتداء يعاود علاقته مع عشيقته) وبحركة بسيطة فتح باب المخزن .

وسار إلى منزله وجيبه مبلل بالعرق . وعندما أتى الصباح استطاع أن يقبض ثمن ما سرق من أم أحمد وأبي النجا ، وإن غبن في السعر لحداثة عهده وخوفه في أول الأمر ولأنه لم يصبح بعد (قديم في الكار) وحدث بعد ذلك أنه كلما كان حسنين إبراهيم في أجازة وقعت سرقة من سلسلة سرقات متشابهة متتالية في هذا الشارع المطمئن الهادئ ومنذ ذلك الحين انقطع حسنين إبراهيم إذا كان في (دركه) عن تنظيف غطاء رأسه وقتل شاريه .

فتوة ديجتري

هى غير خاصة ببلد دون بلد ، هى - إن شئت - (ماركة)
لقهاو عديدة منتشرة بريف مصر شمالها وجنوبها . فى كل بلد صغير
أو قرية كبيرة . إذ كلها تتشابه فى أن الذى يديرها رجل هو فى
بلد - ديمتري وفى أخرى - محالى - ولا يخرج اسمه عن أن يكون
واحدا من هذه الأسماء - وما يشبهها من تودرى وخريستو أو ينى
ونخرالمبو ..

هى قهاو تحتل مكانها فى هدوء وسلم وتستمر فى نمائها من محافظة
على التقاليد التى أوجدتها منذ نشأتها الأولى . معتمدة على وسط واحد
لالتحيد عنه حتى تصبح مع الزمن خصيصة من خصائص هذا الوسط

وظاهرة كبيرة الأثر في حياة الشعب المختلفة النواحي قد تعادل أهميتها
أى ظاهرة أخرى .

وكذلك تجد كلمتا (قهوة ديمتري) مجالا في حديث الناس
وحياتهم كما تلقاه ألفاظه قصيرة تؤدي معاني جملة كالنقطة والمركز
والمحطة وعند العمدة وأخيراً الكفر (١)

وفي كل بلد تمتاز (قهوة ديمتري) عن بقية القهاوى بنظافة
مقاعدھا ومناضلھا ، وبهدوء جوھا وخلوھ من الضجيج وألفاظ السباب
والمضاربات والمعارك . وبتكبرھا عن تقديم (الجوزة) البلدية إلى
زبائنها مستعيضة عنها (بالشيشة) التي يعتبرھا الرأى العام أرقى من
(الجوزة) تحت تأثير اندفاع الجمهور في الزمن الماضي في التشبه
بعادات حكام الأتراك ، ومنها تدخين (الشبق) . فلم يستمر على
استخدام (الجوزة) وهى مصریة صمیمة - سوى الطبقة الدنيا ..
ولعل السبب في نجاح قهوة ديمتري هى أن الذى يديرھا رجل
يونانى (ولكنه موصوف بالرومى لدى أهالى البلد تحقيراً لجنسية هذا
المهاجر الغريب) .

تجرى في دمه مهنة إدارة القهاوى بالوراثة من أب عن جد ،
والا فلماذا لا يستطيع محمود أو على أو حسن جيرانه الوطنيون تقليده .
فها هم يرونه قد حجز المكان الذى يعد فيه طلبات الجلاس بستان خشبي
رقيق بينما هم لا يزالون معتمدين على استعمال (الغلاية) ، ذلك

(١) لفظ يطلق في الريف على مكان البغاء الرسمى .

البناء الحجري الذى يضعونه فى ركن من أركان القهوة دون ستر
والذى يعلو فوقه (البكرج) الأصفر الكبير المعد لغلى الماء
للقهوة والشاي والزنجبيل فىرى الخالس إليه الماء القلرى يجاور البكارج
ويرى (المعلم) يغسل فنجاله فى ماء أسود عكر ثم يمسح يديه فى
فى جلبابه القدر ، . ثم يسمع الخادم يتنادى بطلبات الزبائن فى لهجة
منكرة وألفاظ عامية مبتدلة من (واحد أزوزه . واحد جتربيل
واحد تمباك حمى .)

ثم يزى زبوناً بجانبه لم يفلح فى (شد الحوزة) فينادى الخادم
فيتنفس فيها شهيقاً قوياً وينتهى من مأموريته بالبصق فى الأرض سرة
ومرتف . . .

وديمترى يستعمل كراسى مريحة بينما هم يصرون على هذه الدكك
التربة والمقاعد الخشبية ذات القش المحدولة ضفائره الخضراء والبيضاء
ولكن المهم فوق هذا أن ديمترى يقدم لزبائنه أنواع الخمور
ويطبخ لهم دون غيره أكلا نظيفاً يتناولونه فى الظهر والعشاء .
وليس هناك من قهوة غيرها يجد فيها الزبون (فيشا) للعب
البوكر مع الاستعداد المطلوب من ورق أحمر وأزرق يتبادله كلما
تأثر الورق بالاستعمال أو كلما أراد تغيير مجرى حظه .

لكل هذه المميزات أوجدت (قهوة ديمترى) لنفسها مركزاً
يكاد يكون شبيهاً بالرسمى لأن موظفى البلد لا يجلسون لأنفسهم منتدياً
يقتلون فيه الوقت فى النهار وجانب من الليل ويكون فى الوقت نفسه

لألقابهم سوى (قهوة ديمتري) فقد تجدد حضرة العمدة ينصت لشكاوى الناس وهو في مقعده المعتاد بالقهوة، وترى وجوها لا تألفها إلا من وراء مكاتب وأكوام الورق واللوسيات بل تسمع نفس الحديث الذى يلور بين الموظفين فى محل عملهم وهو لا يخرج عن ترديد أخبار العلاوات والتنقلات وآخر أخبار فضائح الأصدقاء .

إذن هى فى الواقع محل مختار للموظفين يمثل أوقات راحتهم وسمرهم كما يمثل الديوان وقت عملهم ...

فحضرة العمدة فى عمامته التى تغطى نصف جبهته وبطنه البارز وعينيه الضعيفتين ينظر إلى كاتبه فى جلبابه وقلمه الموضوع جانب أذنه ويقول له دون أن يدير رأسه (لما يعوزنى حد أنا فى قهوة ديمتري)

وإذا وصلت لمعاون البوليس إشارة تلفونية فإن عسكري المراسلة لا يجهد نفسه فى البحث عنه بل يتجه إلى قهوة ديمتري فيلقاه مجتمعاً بأصدقائه حول زجاجة جمعه وأطباق المزة. فإذا تقدم إليه بالرسالة قطب معاون جبينه واستعاذ بالله ثم خطفها منه حانقا . فإذا قرأها ردها إليه قائلا فى لهجة ملؤها الاستهتار (طيب روح .. بكرة) ١.

وإذا انتقل إلى البلد موظف أعزب لا عنا وظيفته التى تجعله لا يتوطن فى مكان واحد وتجبره على تغيير أصدقاء واصطناع آخرين مرة بعد أخرى ، مشغولا مثقلا فى إعداد مسكنه الحديد وترتيب فراشه وقد تملكته حيرة ليست بالهينة ، كيف يجد لنفسه أكلا يسد به عن نفسه غائلة الجوع وهو لا يستطيع أن (يسلق بيضتين) كفاه إخوانه

الموظفون مؤونة هذا الجهد وقالوا له (عند ديمترى) ، فيذهب وقد يجلس في مقعد للموظف الذى حل محله بالضبط وبذلك يكون زبائن الخواجة ديمترى وظائف لأشخاص ، فيهم مثلاً معاون الإدارة ومعاون البوليس ، وطبيب المركز ومساعد مهندس الري . ولا يهجم بعد ذلك إذا كان أحدهم زكى أفندى أو عمر أفندى .

ويجد زبائن ديمترى عنده لأنفسهم حرية أوسع مما يلقاها القاهرى مثلاً فى قهوته المعتادة ، حيث لا مجال هناك للتعرف بكل من يرتاد القهوة مثله . ولعل هذا راجع إلى أن قهوة ديمترى صغيرة الحجم عدد زبائنها قليل ، بل وتربطهم معرفة خارجية مستقلة عنها . ولذلك نجد أحدهم لا يتحرج إذا كان بمقعده فى جوار الباب أن يحدث شخصاً فى آخر القهوة بصوت مرتفع يسمعه كل الحاضرين .

ويرتقى ديمترى عن أن يكون (جرسونا) بسيطاً كأي جرسون آخر فى مصر ، ويصبح نديماً لزبائنه يهزءون بلهجته الرومية وبجنسيته تعصباً للأتراك ، ثم لا يتحرجون من أن يودعوه بعض أسرارهم ، وأن يقترض أحدهم منه إذا خسر (صولده) بأجمعه فى لعب البوكر إذا عثر به حظه .

إذن علمت بعد هذا كيف يستطيع ديمترى أن يجد رزقه فى البلد . إن الأهالى كالطفل يبدل النقود فى دمية يلهو بها ويتحكم فى حركاتها ويظهر قوة ساعده واستبداد ارادته بتهديم رأسها . كذلك هم فى حاجة إلى شخص يهزءون به ولا يستطيع أن يهزأ بهم فتشعر

أنفسهم بأنها تتمتع فعلا بالميزات الخليفة بجنسيتها والخاصة بطبقها
الإجتماعية

تقع قهوة ديمتری التي سأتخذها نموذجا لهذه القهاوى المتشابهة
فى بلد صغير من بلاد مديرية الغربية يضمها النيل إلى صدره الرحيب
غير حاقدا على هؤلاء الناس الذين يشقون لخته ويمتطون ظهره بفلكهم سعياً
إلى الأسواق فى المدن والقرى. ويفسلون أجسادهم ويزيلون صدأهم
ثم بعد ذلك يهملون عبادته التي طالما ألفها من أجدادهم الأقدمين .
وديمتری طبعاً رجل يونانى لا ندرى متى جاء إلى مصر أو لماذا
اختار هذا البلد دون سواه ، والظاهر أن هؤلاء الناس قدرة
على التشبث بمكانهم فى بلاد غربتهم لا يرحون .

وهو رجل طيب القلب ، غير كبير المطامع به شىء من الغباوة
الممزوجة بطيبة ، لا يزال رغم إقامته الطويلة فى مصر ينطق بكلماته
فى لهجة رومية ، فإذا أنصت له زبائنه استغرقوا فى الضحك وطلبوا
منه إعادة بعض كلمات يستعصى عليه نطقها ...

وديمتری قد أقبل على الشيخوخة فثقلت حركاته وقل نشاطه ،
ولذلك فإن زوجته تساعدته فى أعمال لا تنتقل بين الزبائن بل تظل
مختفية وراء الستار الخشبى منهكة فى إعداد (المترى والميوليچى)
فإذا مال ديمتری على الجالس يسأله ما طلبه أجابه (واحد مترى)
فإنه ينادى بهذه الكلمة بصوت هادىء وبلهجة تختلف عن لهجات
هؤلاء الجرسونات الذين يصرخون بطلبات الجلاس بكلمات يونانية

طويلة ذات وقع رنان ... أما ديمتري فإدام ينادى زوجته فما حاجته
للصريح والأمر ؟ هو يكلمها كأنهما في منزلهما كما يحدث الزوج
زوجته في شئونهما الخاصة .

.

إذا أقبل (المغرب) تبتدىء الزبائن في الاتجاه لقهوة ديمتري
وأول من يبكر في الذهاب حضرة العمدة هربا من الانصتات لشكاوى
النساء وقضايا مضاربتهن . وكل واحدة تحلف برأسه وتهتم بتقبيل
رأس غريمتهما ...

إذا رآه ديمتري لم يسأله ما طلبه . بل ينطق بلفظ رومى في لهجته
المملوءة بالطيبة ثم يعود بعد هنية حاملا (شيشة) بللورية يلخن
منها العمدة فيتوه في أفكاره وهو ينصت لقرقرة الماء ثم ينفث
الدخان من فمه ويحلق في سحابه شاعراً أنه يزيج بذلك عن صدره
عبثاً ثقيلاً

ثم يتلوه معاون الإدارة فيتحى ناحية سرعان ما يجتمع فيها معاون
البوليس وطبيب المركز الذى يطلب عشاءه مبكراً ولا يرضى بغير
(البيض المقلى) وقليل من الجبن . (وإلا فما قيمة نصائحه لجميع مرضاه
— اتعش عشاء خفيف ! فاهم !) — ثم يأتى حسن أفندى مكاتب إحدى
الجرائد ينصيد أخبار الموالد والأفراح والمآتم ثم يقبل حسن سلامة .

وحسن سلامة وجل متوسط القامة قد بكرت ناصيته — التى لا
يحجبها طربوشه المائل إلى الوراء فوق قمة رأسه — فى المشيب . وله

عينان (عسلينان) تبعثان إليك معاني كثيرة من الطيبة وهدوء النفس يعكروه في بعض الأحوال . ألم ظاهر إذا ضاقت به الحالة المالية . فهو يتاجر في الملابس الداخلية . ثم يقوم لجمهور الموظفين والأهالي بقضاء جميع حاجاتهم التي لا توجد إلا في طنطا والأسكندرية ، فيسافر لأحدهما كل يوم في مقابل أن يقتضى منهم شيئاً زهيداً فوق الثمن ، ولذا فإن لحسن سلامة اشتراك في السكة الحديد ومن هنا كان معروفا لدى أهالي البلد بلفظ واحد هو (الأبونية ..) فيسأل أحدهم الآخر (هل رأيت الأبونية ؟) . وهو فوق هذا محبوب لايسبب لنفسه عند أحد الناس كراهية أو ضغينة .

إذا وصل (الأبونية) إلى قهوة (ديمتري) سلم على الجميع بصوت مرتفع فأجابه بتحية باشة وقد يسمع من نواح كثيرة (أهلاً وسهلاً ياأبو علي ١)

ولا يستقر به المقام حتى يأتي له الخواجة ديمتري بالورق فيجلس أمامه رجل اعتاد أن يلعب معه كل ليلة . ويتحفظ كلاهما للعب . وربما نشط بعض الحاضرين إلى مشاركتها في لعبها فينضم لها اثنان آخران مشهوران بمقدرتهما في هذه اللعبة حتى يكون اللاعب (حامياً) والتضال عنيفاً .

يجلس الأربعة حول منضدة في وسط القهوة وتحت (الكلوب) الوحيد بها . ثم يتبدىء سلامة في تقنيط الورق بحركة سريعة تدل على خبرة تامة ثم (يفرقه) أربعة أربعة وهو يمازح من معه .

وفى أول الأمر يجذب (الأبونيه) بعض الحاضرين إلى مشاهدة اللعب فينقلون مقاعدهم - واره وكلهم يتحزبون ضد خصمه ، فإذا تقدم اللعب وعلا صوت (الأبونيه) من (انزل بالعشرة ... هات الدوه .. يا عين عليك ولد ابن حلال ... بصرة .) جذب معظم الحاضرين بالقهوة حتى تصبح بجلاسها متر كزة على شخصية (الأبونيه) الذى يقود أبصار الحاضرين . وهم يتتبعون بشوق وشغف حرركات إنسان عينيه فى دهشته العصبية وقد أخذته حدة اللعب وتدور على شفاهم ابتسامة خفيفة لا ينتبهون لها ولا تفارقهم طول الوقت ويختفى عندئذ لدى كل شخص متاعبه وآلامه .

بل وآماله وتنحصر حياته فى الوقت الراهن يقضيه فى لذة ونسيان . إذا ساعد الحظ (الأبونيه) انقلب بالتأنيب والتبكيت على خصمه مكيلا له الاستهزاء والاحتقار (انت تعرف تلعب . مين اللى علمك . روح اتعلم يا شيخ .. ما بقاش الا نلاعب عيال ..) وألفاظ الاستهزاء هذه ضرورية فى لعب الشرقيين كالتواابل فى طعامهم لا يحلو لهم بدونها ..

وأنت إذا دخلت إحدى المنتديات الكبرى بالقاهرة مثلا . وجدت معارك كبرى تدور داخلها فى صفين من الناس يجلس أحدهما قبال الآخر .. يلعبان (الطاولة) فكأن بينها خصومة شديدة لا يكتفون بضجيجهم بل تحتم عليهم أصول اللعبة (أن ينقلوا الحجر) بقوة . وقد تجد أحدهم يرفع ذراعه إلى أعلى ثم يضع الحجر فى مكانه كأنه يندق

مسيراً . وإذا سرت بجانب صف منها سمعت ألقاظ الاستهزاء من واحد ووجدت وجوماً من آخر بحسب ما إذا كان غالباً أو مغلوباً .

يظل (الأبونيه) فى مرحه ونشاطه وهو يكيل الاستهزاء لخصمه حتى يجد نفسه فجأة أمام (الأرض) وقد أتى عليه الدور فى اللعب وليس فى يده إلا ورقتان سبعة وعشرة... عند ذلك يترى وينقل إحدى الورقتين مكان الأخرى عدة مرات ويكد ذهنه ليتذكر كم ورقة من العشرات أو السبعات (نزلت) فى الأرض .

ويرتعش إنسان عينيه فى رعشة عصبية حائرة ويأخذه الوجوم ويقلب نظره فى وجوه الحاضرين كأنه يستطلع فى نظرهم قدره المحتوم .. سبعة أو عشرة ؟ هذه هى المعضلة الهائلة التى يرزح تحتها فكر (الأبونيه) . ولا شك أن دقائق قلبه تزداد وأن الدم يتصاعد إلى رأسه مندفعاً ... ذلك لأنه لا يلعب لقضاء الوقت بل اشباعاً لشهوة التغلب على الغير . ثم هو لا يرضى لنفسه بالانهزام بعد أن طبقت شهرته أرجاء البلد . ولا يقبل أن يدور الحديث فى القهوة يومين متتاليين بل ذكر هزيمته المنكرة

وبحركة وجلة مستريية يضع (الأبونيه) السبعة على المنضدة ، وعندما يقفز خصمه من مقعده ويقبل ورقة فى يده بصوت مرتفع ثم يلقيها على المنضدة قائلاً (بصره !)

فينقلب الموقف . يصمت الأبونيه ويصفر وجهه وتقل قيمة ألعابه من الوجهة الفنية تحت تأثير الانهزام ويبتدىء خصمه فى إسماعه التبكيت

والاستهزاء قائلا (فالح جدا ومشطر من الصبح
أيوه أستنى لما تغلب .. العب العب واحنا نشوف !!)

و (أبو على) يعد رجلا طيبا مجدا في عمله لا يعرف رياضة واحدة
ولو أن أحدا من الناس قال له : « إنك لا تتراض كل ليلة بلعب
(الورق) .. لما صدقه ، ولكن هذه رياضة تفيده فتجدد دمه وتنسيه
همومه وتريح عقله وهو يقضى ، إذا كان مستريح البال والخط ،
وقتا طويلا في اللعب وقد يلعب حسن سلامة عشر (عشرات) في
ليلة واحدة يخرج منها كلها غالبا لجميع المتطوعين لمقارعة !

يصل بائع الجرائد فتتلقفها الأيدي . وهناك زبائن خاصة لها
غرام شديد في قراءة الجرائد وكل كلمه فيها ، فإذا قرأ أحدهم في
جريدته أمسك بتلابيب زميل له سىء التحظ فيسرد عليه كل الأخبار
التي قرأها مع أن هذا الزميل البائس يكون قرأها مثله وعلم بها ولا
حاجة لديه في الاستماع لها . ولكنه لا يجد مخرجا من هذا الموقف الحرج
سوى أن يسرد لغريمه بعد أن ينتهى من قصصه وأخباره كل المعلومات
التي نسيها وقد يكرر ما قاله زميله وبذلك يكيل له بكيله .

وقد يتركان القهوة وجلاسها ويهتمان في حل لغز من الألغاز التي
هى بلاء الجرائد الأسبوعية هذه الأيام . فيقرأ أحدهم (ما هو اسم
ثلاثي يدل على صفة من صفات العظماء ، فإذا قرأته مقلوبا فهو من
مستلزمات الطعام)

فيخرج من جيبه قلما رصاصا - وهؤلاء الناس يحرصون على أقلامهم استعداداً لطوارئ الألغاز ! وعلى هامش الجريدة يكتب (١ - ٢ - ٣) ثم يتريث قليلا ويقول - قبل تبقى لن ... فيكتب تحت الأرقام (ن . ب . ل . ا) .

ثم يستمر (ثانيه وأوله وثالثه فعل بمعنى أرى بسرعة) فيقول (نبل ؟) ويكرر ها حسب الأوزان المختلفة تارة بالضم وأخرى بالجزم فلا تنفع معه . فينتقل إلى ناحية أخرى من هامش الجريدة ويعاود كتابة الأرقام من جديد ويكتب (ش . ر . ف) ويقول (شرف) ! وهو في انهاكه نسي أن زميله يكذ ذ منه بدوره في اكتشاف هذا اللغز ويكون الحظ قد ساعده فيمسك ذراع الآخر وبصوت يكاد يبع يقول (آه ! حلم يتي ملح وملح ...) ثم يرمى القلم ويريح طربوشه عن رأسه ويميل في مقعده بينما يقلب زميله في صحائف الجريدة محاولا بذلك إخفاء غيبته وقد امتلكه سرور وخيلاء وشعور بلذة الانتصار ..

(جريدة السياسة ١٩٢٦/١٢/٢٢ ص ٣)

عن المجنون؟

نشأ محسن أفندى بن عبد المطلب بين عائلة شهيرة بذكاء أفرادها
وحدة أذهانهم - وفي الوقت نفسه - بقصر أعمارهم ، فهم لا يتجاوزون
تمام العقد الثالث حتى تذوب أجسادهم فجأة تحت تأثير خفى وبغير
مرض معروف .

وكان يعيش وحيدا مع أمه العجوز ومعمدا على إيراد صغير
يمكنه - في جهده وتقتير - من الاستمرار في دراسته بمدرسة الهندسة
ومحسن شاب قارب الخامسة والعشرين طويل القامة ، ضامر
البطن له جبهة مرتفعة فوقها شعر يضرب إلى الصفرة طويل الأنف
دقيقها .

أما عيناه فواسعتان ، شديدة السواد والبريق لها حركة سريعة تنبعث منهما كهرباء غريبة . وقد تختلج عينه في بعض الأوقات إختلاجاً عصبياً . وهذا في أوقات غضبه وعندما تملكه حيرة تضايقه ولعله كان أكثر فرد في عائلته ذكاء ، وأشدهم توقدا فهو خفيف الروح ، حلو النكتة ، شهي الحديث ، يعلم عنه كل زملائه مهارته في حل المسائل العويصة التي تستعصى عليهم ، دون أن يكدر ذهنه من أجلها أو يتعمق في التفكير . إذا رأيته لم تلبث أن تعترف بأن هناك قوة خفية توزع المواهب والعقول . وأن الشخص يولد فلما يجد نفسه معلق الذهن أو شعلة من بين نار وليس هو — على الحالتين — الذي أدار المفتاح أو ألهب الكبريت ، وليس في مقدوره أن يفتح سجنه أو يطفىء ذكاه .

. . . .

بعد أن قال محسن شهادته بتفوق عين في وظيفة بدمياط . وعندما حل بها وجد نفسه غريباً لا يعرف أحداً . ولكن سرعان ما التفت حوله القلوب فكثرت أصدقاؤه وإن بقي له شعوره بأنه لم يخلق ليعيش بدمياط وأن موطنه القاهرة ولا يرضى بغيرها بدلاً .

وعندما أقبل شتاء دمياط برده القارس وأمطاره الغزيرة ، لم يقو جسم محسن على تحمل رطوبة الجو . فأصيب بحمى التيفوس فأقعده الفراش وقتاً طويلاً انتابه فيه هذيان وغيبوبة طويلة ولكن شبابه تغلب على المرض فقام . فإذا هو شخص آخر غير ما كان . إذ قام نحيفاً مهزولاً يكاد ينكفيء إذا سار من شدة ضعفه . وترتجف ركبته

وترتعش يده . وسواد عينيه ينطق فأصبحنا غاثرين وجفت شفثاه
واصفر وجهه وانطبق شدقه

وأصبح محسن — رغم أنه كان يسترد قواه شيئا فشيئا — شخصا
سريع الملل لا يقوى على الانصات لحديث يطول وتفزعه أقل ضجة
وتثير غضبه وتأفقه

وكثيرا ما أطال التحديق في الجو وهو تائه الذهن مشرده ثم
ينهض ويتأوه بأهة يودعها تأفقه وتبرمه من الحياة .. ثم يصبح فجأة —
وبدون سبب واضح — شخصا ثرثارا كثير الضحك مرتفع الصوت
على الضحكات .

ولعل أغرب ظاهرة بدت فيه أنه كان إذا تحدث ينتقل من
موضوع إلى آخر دون ترابط أو سبب ودون أن يشعر هو بهذا
الانتقال .

وأخذت هذه العوارض تزداد حدة حتى خطر لإخوانه الموظفين
خاطر كتموه ولم يستطيعوا التصريح به لحبهم له وإشفاقهم عليه
وأملا منهم أن يزول ما به بعد أن يسترد قواه وعافيته .

ولكن محسن تطرف في أعماله وأصبحت له تصرفات شاذة .

إذ لما أتى وقت مساحة الأرض — وكان الزمن صيفا — رأى أنه من
السخف أن يشتغل بالنهار في هذا الحر الشديد ، وعزم على أن يكون
عمله بالليل — فكان إذا أتى قرية أمر أهلها فخرج له كل من يملك

فانوسا وساروا معه وهو يمتطى صهوة حماره يغنى تارة ثم يخطب فيهم تارة أخرى .

ودعى مرة إلى الشهادة أمام المحكمة في حادثة قتل وقعت أمامه فرأى الجمهور يدفعه بالمناكب فوقف قبالة القضاة وأمام المحامين يسألونه أسئلة بدت له تافهة فتضايق وقطب جبينه . وأكد للمحكمة أنه رأى القاتل يضرب ، ولشد ما كانت دهشته عندما سمع القاضي ينطق بالبراءة . وعلم بعد ذلك أن القرار بنى على أن (حيث انه لم يقيم على التهمة دليل راجح فأقوال الشاهد الأول (وهو محسن) متضاربة مضطربة وتعارضت مع أقوال الشاهد الثاني . . . ولذلك عندما أوى إلى منزله لم ينم وفكر طويلا في هذه الحالة السيئة . وفي الصباح كان قد أتم خطابا مكونا من عشرين صفحة أوله (تقرير مرفوع من محسن عبد المطلب إلى معالي وزير الحقانية بمشروع تعديل نصوص قانون العقوبات) وكان مما فكر فيه أن تكون الجلسات كلها سرية لأن الجمهور يحدث ضجة تشوش على القضاة وتثير أعصابهم دون أن يشعروا وتجعل أحكامهم مضطربة من تأثير الجو المملوء بالضجيج الذي يعيشون فيه وأن يمنع المحامون من عملهم لأنهم يقلبون الحقائق بالفاظهم وخطبهم الفارغة . وأن القضية إذا كان بها محام فلا بد أن يحترس القاضي منه ويراقبه ليعلم محاولاته في التغرير به

وبعد أسبوع واحد إذ هو يمر في بعض الأراضي المملوكة لوزارة الزراعة والأوقاف رأى النبات مريضا والاهمال ضاربا أطنابه فكاد

عسك بتلايبب أحد الفلاحين يضربه . وسهر ليلة أخرى وفي الصباح كان قد أتم (تقرير مرفوع من ... إلى صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء بشأن إلغاء وزارتي الزراعة والأوقاف وإضافة عملهما إلى وزارة الحربية) .

وكتب (مذكرة ابصاحيه) قال فيها ان في مظاهر الدولة المصرية متناقضات كثيرة . والجيش المصرى كافة من جنود وضباط لاعمل له لأن الغرض من الجيش الحرب ، وحيث اننا لن نحارب أحدا فلا لزوم للجيش ولايتبقى بعد ذلك مبرر لوجودهم وصرف مرتباتهم الطائلة وأكلهم مجاناً من خزينة الدولة ، ولذلك فإنه يجب تشغيلهم في الأراضى البور وأراضى وزارتي الأوقاف والزراعة .

وقال في فوائدهذا المشروع إن العزبة القذرة ستصبح معسكرا نظيفا وأن الخولى سيكون يوز باشى أنيقا ، وتنقلب المدافع بسهولة إلى محاريث ، وتصدر الأوامر إلى الفلاحين بالبورى من الخولى . وبذلك يسير العمل بانتظام ولايهمل الفلاحون من الجنود في عملهم لأن القانون العسكرى يطبق عليهم .

وعلى ذلك كانت المادة الأولى في القانون هي :

المادة الأولى . تهدم جميع العزب الكائنة في مصر سواء بالوجه البحرى أو القبلى لقذارتها وقلة الضوء فيها وكثرة البق والبراغيث ، وتهدم جميع الثكنات العسكرية في العاصمة والمدن وتنقل الحجارة والدبش

إلى أراضي وزارتي الزراعة والأوقاف ويبنى في كل ألف فدان ثكنة واحدة . . .

المادة الثانية - يلغى القانون العسكري الحالي ويستعاض عن جرائم التسليم للعدو والإهمال بحسن الضبط والربط بجرائم التأخير في الحرث والرى والإهمال في تنقية الدودة . .

المادة الثالثة - يكون في كل ثكنة برج عال يقف فيه اليوزباشى الحولى ليصدر أوامره بالبورى إلى جماعة الجنود المنتشرين بالأرض . .
ثم لما رأى أنه صاحب مشروعين كبيرين قرر أنه يتم اقتراحاته فسهر ليلة أخرى وفي الصباح كان قد أنم « تقرير مرفوع إلى صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء بإلغاء المحاكم الشرعية وإضافة أعمالها إلى وزارة المعارف »

وملخص اقتراحه أنه يجب على كل رجل أعزب ، أو امرأة عزباء أن تقدم إقرارا بذلك إلى وزارة المعارف التى تعقد فى كل ستة شهور امتحانا للذكور وآخر للنساء فإذا ظهرت النتيجة أجبر الأول فى الناجحين على تزوج الأولى من الناجحات والثانى من الثانية وهكذا ..

وقال إن من فوائد هذا المشروع القضاء الأخير على طائفة (الخاطبات) وأن الحظ سيخرج بتانا عن الزواج الذى يجب أن نصونه عن التلاعب الحاصل الآن . وأن التزاوج سيتم بين القرناء ولا يغيب أحد فى نصيبه فتقل الشكوى ، وينتج نسل منتظم يعتمد على وراثة صحيحة .

ولكنه بعد قليل لاحظ أن مشروعه ناقص فأرسل إلى رئيس الوزراء
بخطاب يكمل النقص وأخبره أن يجيز عقد ملحق للسائقين . وأن
الذين يسقطون في الملحق يوضعون تحت المراقبة ولا يسمح
لهم بالسهر بعد الساعة مساء (هذه هي الطائفة التي يجب على الحكومة
مراقبتها لأنها هي التي تعيث فساداً في المنازل وتحرض النساء على الفجور
وليست هي طائفة المنتشردين الذين تهتم بهم الحكومة على حقارة
شأنهم وتفاهة قيمتهم فتسخر لهم العمد والبوليس ليراقبهم في
حركاتهم وسكناتهم)

وأخيراً كاد محسن أن ينقطع عن عمله . وسر لتغيبه هذا جميع
الموظفين لأنهم وإن كانوا يشفقون عليه فلمهم أصبحوا يخافونه ويرتعبون
من نظراته وحركاته . وكل الناس ترتعب من المحنون ولو كان أهلاً
الناس وأطيبهم قلباً .

وكان محسن يمتطي جواداً له ويسير في الأطيان ، وسواء ما كان
مملوكاً منها للحكومة أو للأفراد ، ويأمر الفلاحين الذين أصبحوا
لا يهتمون به ولا بأوامره بأن يعتنوا بالأرض ، وكان من تأثير ذلك
أنه أصبح يعتقد أنه هو المالك لهذه الأرض الشاسعة بل أنه يمتاز على
هذا المالك المتغيب بالقاهرة والذي لا يرى أملاكه إلا مرة واحدة في
عمره ، بل بماذا يفترق هو عن المالك ؟ إنه يتمتع نفسه بهواء الأرض
ويسير فيها ويتعهدا وكل شخص يستطيع أن يكون أكبر مالك
في العالم إذا ارتفع عن سخافات الناس وترهاتهم في اغتصاب الأرض

ورأى أن الأرض كلها إنما خلقت ليمتع بها . وكل شخص يستطيع أن يتمتع بها ولا يمنعه من ذلك قانون سخيـف ورثناه عن جدودنا السارقين المغنصبين ...

ثم تملكه قلق شديد . ماذا يفعل بهذه الأطيـان كلها ؟ .. وأخيرا قرر أن يهبها إلى طلبة مدرسة الهندسة لأنهم أحق الناس بتفهم مقاييس الأرض واتساعها . فكتب خطابا إلى ناظر المدرسة يخبره فيه بأنه عزم على أن يهب المدرسة كل أطيانه (البالغ قدرها ألف فدان بما فيها من المنازل والعزب والمحازن والاصطبلات والأجران والمحاريث والطلـمبات والمواشى من كافة أصنافها)

ولم ينتظر ردآ . وبعد أسبوع واحد خطرت له هذه الفكرة من جديد لأنه نسي كتابة الخطاب الأول ونسى أنه فكـرفيها من قبل . والغريب أن خطابه الثاني كان صورة تنطبق على خطابه الأول . كلمة أمام كلمة . وسطراً بسطر .

وكان بعد ذلك يرسل في كل أسبوع خطابا بهذا المعنى إلى ناظر المدرسة .

— — —

لم يبق أمل في شفائه . ولم يبق أمام رؤسائه إلا أن يخبروا الوزارة في القاهرة فصـرحت له بأجازة مرضية طويلة ، ، وأشارت بإرساله إلى مستشفى المجاذيب (بالأورليك نمرة ...) ولما كلف رئيسه أحد

الموظفين بتبليغه هذا القرار امتنع ، وأبى كل موظف آخر أن يفتح
محسن في هذا الموضوع ... من يجرؤ أن يذكر له سيرة مستشفى
المجاذيب ؟

وأخذ محسن يزداد في (تنكيته) مع الموظفين ويمارحهم ويصحب
كل كلمة بلطمة منه على كتف محدثه ...
وكان قرار الجميع أن تنفيذ أمر الوزارة أصبح لا مفر منه ،
بل يجب أن ينفذ بسرعة ..

وانتهز رئيسه (الذى كان لا يطمئن على نفسه طالما صوت محسن
المرتفع يرن في أذنيه) فرصة غيابه وجمع إخوانه معه وتشاوروا
في الأمر ولبثوا منعقدين ساعات طويلة قرروا بعدها أمراً وخرجوا
وابتسامة صفراء لعينة لا يبعثها إلا الخوف تدور على شفاههم .

وفي اليوم التالي عندما جاء محسن طلبه رئيسه ، فأما دخل عنده أجلسه
على مقعد وقال له (إننى أعلم أنك طيب القلب وتشفق على المساكين
وأنا قررت أن أكلفك بمأمورية دقيقة وأرجو منك أن تكتمها ولا
تذكرها لأحد كان !

هذه المأمورية هى أن زميلك المسكين داود أفندى أصيب بنوع
من الهستريا . وقد كلفتنا الوزارة أن نرسله إلى مصر حتى يتسلمه
مستشفى المجاذيب . ولكنى رأيت من عدم اللوق أن نفتح في الموضوع
صراحة وعزمت على أن أرجو منك لأجل خاطره وصداقتك له -
أن تصحبه معك إلى مصر وفي اللحظة ستجد عمال المستشفى في انتظاره ..)

فقطب محسن - وسعل سعالاً خفيفاً وظهر التردد في نظراته
فاحتلجت عينه ثم طفق يسأل رئيسه (وكانت يد الرئيس ترتعش
أسئلة كثيرة .

— لم ألاحظ على داود أفندى شيئاً ؟

— هل جنونه هادىء ؟

— وماذا أفعل لو هاج منى في الطريق ؟

ثم أصابه نوع من الدهول و كأنه يذكر أموراً بعيدة في الماضي
وهذا ما كان يدور في ذهنه فعلاً فإنه أخذ يجهد نفسه في تذكر حوادث
حصلت من داود أفندى . فتذكر أنه ذات يوم أوقف عمله وارتبك
وسأل جميع الموظفين عن نظارته مع أنها فوق أنفه وعند ذلك وضع
محسن ذراعه على حافة مكتب رئيسه وأسند رأسه عليها واندفع في
ضحكة عالية طويلة .. وكان الرئيس يرتعش وكاد يخرج من الغرفة
لأن أعصابه اضطربت فجأة لدى سماعه هذه الضحكة .

ولما عاد محسن إلى مقعده ظهر الجهد ومظاهر الاهتمام على وجهه
وحركاته . فكانت أوامره (للحاجب) مملوءة قسوة وشدة .
وأكثر من تعهد ربطة رقبته وطربوشه . ثم يرسل نظرات جانبية
طويلة وتلمع عيناه بها ، إلى حيث يجلس داود أفندى . وأخذ يراقبه
كيف يحرك رجله حركات صغيرة كمن يضبط نغماً موسيقياً يغنيه
سراً . ثم انتقل بجانبه فجأة ووضع يده على كتفه وقال له في لهجة
مملوءة بالطيبة .

— هل تحضر معى للفسحة بمصر ؟

— لماذا ؟ وما دخلك أنت فى ذلك ؟

فقال محسن وقد ظهر على وجهه المجهود الذى يبذله ليتقن (بلغه) وهو مجهود من يدارى عن المحنون اعتقاد محدثه فى جنونه. وهو ليس بالأمر السهل الهين فى نظر محسن .

— لا لشيء سوى أننى أعلم أنك لم تزر مصر منذ مدة طويلة وأننى مسافر هناك فأحببت أن نكون سويا ، فلماذا تغضب !

فزجر داود أفندى ونظر له ثم قال :

— حسن .. ومتى ترغب أن تسافر ؟

— إذا أردت فالآن حالا .

نهض داود معه . فوضع محسن ذراعه فى ذراعه كجندى يقود مجرما وقبل أن يخرج من الغرفة أدار رأسه لباقي الموظفين ونظر لهم نظرة ثم عن شدة فرحه بانتصاره وسروره باتقان الحيلة وذكائه ومهارته.

— — —

جلسا ، أحدهما قبال الآخر فى القطار . لا تفارق نظرة محسن الدقيقة اللامعة حركات داود . فهو متنبه لأقل حركة تبلى منه . حاول داود أن ينظر من النافذة فمنعه محسن بقوله .

كن عاقلا معى ولا تنظر من النافذة . !

ثم تذكر أنه ارتكب بقوله هذا غلطة كبرى وأنب نفسه وراح يشرح لداود معنى كلمته من أنه من المجازفة أن ينظر المرء أثناء سير

القطار من النافذة ثم انزوى محسن في ركن المقعد آسفا مغضبا من نفسه وهو يقول سرا : لن يجد أمامه شخصا غيرى يسوق جنونه عليه ...)

كان داود أفندى رجلا طيبا . رضى أن يلعب هذا الدور مع محسن لحبه إياه . ولكنه رغم تألمه الشديد لموقفه هذا كان يكتّم ضحكات كثيرة ويحاذر ألا يلتقى نظره بنظر محسن حتى لا يتلمس به معانى السخط والاحقار لأنه يلهو به ويلعب به كما يلعب الرجل بالطفل الصغير . فى حين أن محسن كان يعتقد أن داود يهرب بنظراته لأنه خائف منه وأن هذا الخوف دليل على جنونه .

وصل القطار إلى المحطة فقام محسن نشطا مسرورا لأن مأموريته انتهت بسلام وأسرع إلى القبض على ذراع داود قائلا له (الزحام شديد فلنكن شويا) ثم نزلا . فرأى محسن وجوها كثيبة تنظر إليه ومدت نحوه عشر أيد قوية وقبض عليه بينما كان داود مطلق السراح .. فى هذه اللحظة فقد محسن منطقه — ان كان له منطق وكادت رأسه تلهب تحت تأثير فكرة واحدة (هل هؤلاء الناس كلهم مجانين فيقبضون على أنا ؟)

ولكنه أخذ يصرخ فجأة (المجنون أهو المجنون أهو ، مش أنا !) فكان هذا أكبر دليل لدى جمهور المتفرجين وموظفى المستشفى على جنونه . ثم ألقيوه فى عربة وسارت به وهو مقيد بيكى غيظا وحنقا ويصرخ (يا مجانين يا مجانين ! !) .

(جريدة السياسة ، ١٤/١/١٩٢٧ ص ٢) .

فهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
البوسطجى	١٣
قصة فى سجن	٧٧
أبو فودة	١٠١
حياة لص (★)	١٣٧
قهوة ديمترى (★)	١٤٩
من المجنون ؟ (★)	١٦٣

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٣/١١٤٠٥

I.S.B.N 977-01-3632-8

To: www.al-mostafa.com